اتحاد الكتاب العرب

المؤلف : رشاد نوري غونتكين

اليد الخفية

ترجمة : فاروق مصطفى

سلسلة الترجمة (٣)
٢٠١٢

t.me/yasmeenbook

هذا الرجل الذي قال إنه انسحب من الحياة السياسية كما إنسحب من الحياة العسكرية . من المؤكد أنه ليس سطحياً.أدركت أنه رجل مهم جداً . ولابد أنه من تلك الأيدي المساعدة التي لم أستطع تصور كيف يمكن أن تكون. وكان قوله بأنه سيسافر غداً صباحاً باكراً إلى أسكي شهير. يبين ويؤكد هذا .

لم أكن قد تكلمت عشر كلمات عندما نهضنا للافتراق . أمسك فجأة بيدي وقال وهو ينظر في عينيَ:

مازلت عند كلمتي التي أعطيتها للطبيب يا عزيزي. سوف أهتم بك.

ثم أردف وعيناه أكثر قرباً.وكأننا تحدثنا سابقاً على انفراد في أشياء كثيرة:

لايمكن أن تكون الكتابة في شعبة التجنيد أو مصاهرة عزيز باشا وظيفة شاب مثقف ذي تحصيل علمي جيد مثلك . هل اتفقنا؟

9 789933 211332

اتحاد الكتاب العرب

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

السعر داخل القطر (200)

خارج القطر (270)

t.me/yasmeenbook

اليد الخفية

t.me/yasmeenbook

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail **unecriv@net.sy**
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

الإخراج الفني : وفاء الساطي
تصميم الغلاف: يوسف اسمندر

t.me/yasmeenbook

ترجمة: فاروق مصطفى

اليد الخفية

رواية للكاتبة

رشاد نوري غونتكين

عن الطبعة التركية السابعة

1978

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الترجمة (3)
2012

t.me/yasmeenbook

رشاد نوري غونتكين
(1889 – 1956)

من أوائل أدباء عصر الجمهورية في تركيا.

ولد في استانبول.

درس في كلية الآداب بجامعة استانبول، ونال الإجازة في الآداب.

عمل مدرساً في المدارس الثانوية، ثم مديراً لبعضها.

كما عمل مفتشاً للتعليم القومي.

عيّن ملحقاً ثقافياً في السفارة التركية في باريس.

ومثّل تركيا في منظمة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة.

كتب العديد من المؤلفات الروائية والقصصية والمسرحية.

كما ترجم عن اللغة الفرنسية عدداً من المؤلفات إلى اللغة التركية.

t.me/yasmeenbook

من مؤلفاته الروائية والقصصية :

1 - عصفور الشوك	Calikusu
2 - من الشفاه إلى القلب	Dudaktan kalbe
3 - شمس المساء	Aksam Gunesi
4 - الرأفة	Acimak
5 - الختم	Damga
6 - أغصان القرانيا	Kizilcik Dallari
7 - المرض القديم	Eski Hastalik
8 - تكية الكسالى	Miskinler Tekkesi
9 - ملاحظات الأناضول 1 -2	Anadolu Notlari 1-2
10 - تساقط الأوراق	Yaprak Dokumu
11 - ليلة النار	Ates Gecesi
12 - عدو المرأة	Bir Kadin Dusmani
13 - وجه السماء	Gokyuzu
14 - الطاحونة	Degirmen
15 - الليلة الخضراء	Yesil Gece
16 - أمور عادية	Olagan isler
17 - اليد الخفية	Gizli El
18 - زهرة الخرائب	Harabelerin Cicegi
19 - النجوم الخابية	SonmuYildizlar
20 - ضيف الله	Tanri Misafiri
21 - قضية دم	Kan Davasi
22 - رياح الحور	Kavak Yelleri
23 - ليلى والمجنون	Leyla ile Mecnun
24 - الملاذ الأخير	Son Siginak

t.me/yasmeenbook

ومن مؤلفاته المسرحية :

1 - الخنجر	Hancer
2 - المحلل	Hulleci
3 - عصفور الشّوك	Calikusu
4 - معلم القرية	Bir Koy Ogretmeni
5 - محاسب باليق أسير	Balikesir Muhasebecisi
6 - الأغنية القديمة	Eski Sarki
7 - وليمة جبل طانري	Tanri Dagi Ziyafeti
8 - تساقط الأوراق	Yaprak Dokumu

ومن ترجماته :

1 - حياة حضرة محمد	عن إميل درمنغهايم
2 - الأبطال	كارليل
3 - دون كيشوت	سرفانتس
4 - الغريب	البير كامو
5 - الفارس	
6 - شاب فقير	
7 - غادة الكاميليا	الكسندر دوماس الابن
8 - أوهام	
9 - الحقيقة	إميل زولا
10 - اعترافات	جان جاك روسو

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

رواية روايتي الأولى

اليد الخفية هي أولى رواياتي. فقد طلب مني صديقي سداد سيماوي، في السنة الأولى للهدنة، أن أكتب رواية لصحيفته اليومية التي كان يتهيأ لإصدارها باسم " در سعادت ".

كنت مشغولاً بكتابة المسرحيات، ولم يكن يخطر ببالي مطلقاً أن أكتب رواية.

قلت " لا أستطيع " فأجاب " بل تستطيع فالرواية والمسرح عملان فنيان صنوان". كان الاحتكار واستغلال النفوذ والمنصب، الشغل اليومي الشاغل، إذ كثيرا ما كان يشاهد أشخاص لا يملكون أجرة عبور الجسر، يبيعون مقطورة ويصبحون فجأة بين عشية وضحاها أثرياء حرب. كان مثل هذا الموضوع يدور في ذهني، لكنني لم استطع صياغته كمسرحية بشكل من الأشكال، وحتى لو صغته كان هناك شك في إمكانية أدائه وعرضه على خشبة المسرح.

إزاء إصرار سداد قلت " فلأجرب وأر ! " وبدأت العمل.

وكان بحسباني أن تحجز هذه الرواية وتصادر، لكن المجريات حولتها إلى شكل آخر مغاير تماماً.

* * * * *

رأيت صبيحة اليوم الأول، الأعمدة المخصصة للحلقة في " درسعادت " بيضاء فارغة تماماً. كتب في الأعلى فقط عنوان " اليد الخفية "، وكتب في الأسفل " يتبع... ". وهناك إعلان مستقل يقول : " تم تأخير حلقة الرواية من قبل الرقيب".

t.me/yasmeenbook

كانت هذه فضيحة بالنسبة لعمل أدبي. أسرعت إلى الصحيفة. لكن سداد الذي يفهم جيداً بالصحافة، رغم سنه التي يمكن أن يقال عنها صغيرة، لم يوافقني الرأي، بل قال بامتنان تام : " ليست فضيحة، بل حسن حظ، أية دعاية هذه لرواية أولى؛ الرقيب شمسي أفندي إنسان طيب جداً. سنذهب الآن إليه سوية، إذ قال إن بإمكانه أن يسمح لنا بالنشر، مع بعض التعديلات الطفيفة ".

لم تكن هناك يومها كتابة يمكن أن تنشر دون تعديل وتغيير هنا وهناك فيها. ولم أكن أفكر أنني كتبت رواية يمكن أن تتساقط لآلئها ببعض التغييرات الطفيفة أو حتى الكبيرة فيها. ذهبنا مع سداد سوية.

كانت الرواية تبدأ بجملة " ذهبت اليوم لمقابلة الناظر لنتكلم في موضوع الحطب... " فقال شمسي أفندي :

" الحطب لا يمكن، يجب أن نضع شيئاً آخر غير الحطب."

- حسنا، ماذا نضع ؟

- هناك الكثير، مثلاً. أفيون...

- حسناً ولكن، الناظر يقول فيما بعد " هناك بين موظفيّ رجال مثل الحطب... آه، قلت الحطب فتذكرت ". هذا التشبيه بالحطب كان ذريعة ابتدعها الناظر لكي يفتح موضوع الحطب.

ويفكر شمسي أفندي مداعباً لحيته السوداء المحببة، ثم يقول :

" أغلب موظفيّ يحلمون حيث هم جالسون كأنهم تناولوا أفيوناً."

قبلت الفكرة التي عثر عليها الرقيب لأنني أعجبت بها أكثر من إعجابي بفكرتي. وكان تورط حكومة الداماد فريد في تلك الفترة في فضيحة حطب هو السبب في هذا الاعتراض !

" ثم إن كلمة ناظر غير مسموح بها. يجب أن تُغيّرها، وأن تقول مدير عام أو ما شابه. ثم يجب تغيير كلمتي نيشان طاش وببَك... فمعلوم أن حي ببك قريب من قصر الداماد فريد باشا الصيفي في بالطيمان. أما نيشان طاش فهو حي وكلاء الأمة.

t.me/yasmeenbook

بهذه التغييرات وبما يشبهها أنقذنا الحلقة الأولى. لكن مصاعب أخرى برزت في اليوم التالي، ولما أدرك شمسي أفندي أن المسألة ستطول قال لي :

" لماذا لا تشرح لي موضوع هذه الرواية ؟".

شرحت له، فقال مدهوشاً جداً :

" أيمكن يا ولدي ! .. وهل يسمحون للإنسان أن يقول مثل هذه الأشياء في هذا الزمان ؟ فلنصرف النظر عن هذا العمل !"

سحبت نفساً عميقاً حيث أجلس. بينما راح شمسي أفندي يفكر وهو يحك لحيته

ويقول :

" ألا يمكنك أن تغير هذا الموضوع كلياً ؟"

لم أتمالك نفسي، وبدأت أضحك أما سداد وشمسي أفندي فلم يضحكا. قال شمسي أفندي :

" يا عزيزي، الرواية تعني علاقة عشق وغرام ! فلماذا تترك تلك الأمور، وتنشغل بمسائل خطيرة كهذه ؟... فهذه اليد الخفية التي تعمل في الظلام بين المسؤول الحكومي والمحتكر، يمكنك أن تحولها مثلاً إلى يد امرأة جميلة، فنقرؤها نحن باستمتاع."

انزعجت بشكل جدي هذه المرة، فخرجت وغادرت. لكن سداد ألحّ علي في الطريق وفي المطبعة وأقنعني ثانية. لنت رويداً رويدا، مفكراً بإنقاذ سداد من الوقوع في وضع حرج، أكثر من التفكير بنفسي.

كانت الرواية تتضمن علاقة حب صغيرة ثانوية، راحت تكبر وتكبر، فتزيل الموضوع الأصلي وتبتلعه تماماً. وهكذا صارت اليد الخفية في الرواية، تماماً كما خطرت ببال شمسي أفندي للوهلة الأولى، يد امرأة تمتد في الخفاء لتحمي زوجها. أو إذا شئتم صارت يد شمسي أفندي نفسه. وهكذا لن أكون مخطئاً جداً إذا قلت إنني كتبت روايتي الأولى بالاشتراك معه.

ر.ن.غ

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

اليد الخفية

20 نيسان

ذهبت اليوم لمقابلة المدير العام، لنتحدث في موضوع الأفيون. فهناك فرق شاسع بين أوضاع الشركة التي اعمل وكيلاً لها، وبين عرض الإدارة. وبعد أن رددت على كلمات المجاملة اللطيفة التي وجهها إلي المدير العام، اضطررت إلى قطع النقاش. وعندما نهضت أريد المغادرة، قال علي ثريا بيك :

- إنك عائد إلى البيت أليس كذلك ؟... أنا أيضا لدي عمل في " بي أوغلو ".. فلأرافقك حتى " تقسيم ".

- سوف أحرم من هذا الشرف يا سيدي، فلدي عمل عاجل في " جابا ".

خطر ببال المدير العام فجأة شيء ما، فقال وهو يضع يده على رأسه بارتباك :

- كدت أنسى، جيد أنك ذكّرتني يا شرف بيك... أنا أيضا لي مريض هناك... منذ وقت طويل وأنا أفكر بزيارته، ولا أجد وقتاً لذلك بشكل من الأشكال... فلأوصلك بسيارتي إلى جابا.

انحنيت انحناءة بسيطة، وقلت وأنا أبتسم ابتسامة امتنان خفيفة :

- هذا لطف منك.

- دقيقة واحدة فقط يا شرف بيك.

ضغط زراً بجانبه، وأصدر أوامر للآذن الذي حضر، ما زالت الابتسامة الخبيثة على شفتي. كنت أعرف جيداً أنه سوف يقلب

t.me/yasmeenbook

الأشخاص المستترين الذين وراء مسالة الأفيون هذه، مثل سرطانات ملتقطة بملقط. كان المريض الذي سيزوره المدير كذبة مثل عملي العاجل في جابا.

لم أستطع التخلص من طيف ماض حزين راح يراود مخيلتي، فيما كان المدير يوقع بعجلة على كدسة من الأوراق المكدسة فوق منضدته.

كان ذلك أيضاً في يوم ربيعي مثل هذا، قبل خمس سنوات. يومها كان شاب ذو وجه ضئيل متعب يتجول خائفاً خجلاً في الممر الذي خارج هذا الباب. كانت شمس ربيعية دافئة تتسل وتنساب من النوافذ العريضة. لكن ذلك المسكين كان يرتجف داخل معطفه الرقيق البالي، ويفرك بأصابعه المتوترة ورقة في يده. فجأة فتح الباب الكبير موارباً أيضاً هكذا بصعوبة. وقال الآذن ذو القبة المطرزة :

- ادخل !

تقدم ذلك الشاب برأس منخفض وساقين مرتجفتين، كمن يمشي نحو خشبة الإعدام؛ كان يريد أن يقول شيئاً، لكن صوته كان يغيب ويختفي، وتمتلئ عيناه بالدموع. يومها كان رجل مسن بدين، ذو لحية بيضاء، يجلس على رأس هذه المنضدة ويناول الموظف الشاب الذي يقف عنده أكداساً مكدسة من الأوراق. وضع الشاب ذو الهيئة المزرية طلب توظيف في " كمليك " بسبعمئة قرش، فوق زاوية منضدة المكتب، وتراجع إلى الخلف بضع خطوات وانتظر. كانت حياته في رأس قلم هذا الرجل المسن ذي الملامح القاسية، فكلمة واحدة غير مناسبة قد تحكم عليه بالموت جوعاً.

الحياة فعلاً شيء عجيب... فقبل مرور خمس سنوات صار ذلك الشاب الحقوقي ذو الهيئة المزرية، رجلاً مهماً يملي الشروط على رأس هذه المنضدة، ويجعل من خليفة ذلك الرجل المسن ذي اللحية البيضاء محتالاً يحتال مختلف الاحتيالات.

- هيا يا شرف بيك. فلنخرج.

t.me/yasmeenbook

كانت هناك في الممر وجوه متعبة بقدر وجهي المتعب في ذلك الزمن. شبان مرتبكون، ومسنون استندوا إلى حديد أجهزة التدفئة ساهمين...

أحدث خروج المدير إلى الممر هكذا في غير موعده، ارتباكاً خفياً صامتاً. لمحت بطرف عيني رجلاً ناحلاً طويل القامة، أسود اللحية يجري خلفنا فترة مثل ظلنا. كان يحاول الاقتراب منا والتكلم معنا بشيء. لحق بنا عند أسفل الدرج. لكنه لم يجرؤ، فتوقف فجأة.

التفت برأسي عندما استقللنا السيارة، وإذ بالرجل ذي السترة السوداء يقف عند الباب بوجهه الحائر. وبقي هكذا ينظر إلينا وكأننا سرقنا منه شيئاً.

أجل، الحياة شيء مختلف جداً عما نظنه...

فحيرة الرجل المسكين ذي السترة العتيقة الذي تركناه عند الباب كنت أوحي بها الآن إلى هذا الرجل الكبير الذي بجانبي. إذ كنت قد أغلقت موضوع الأفيون نهائياً. لكن ذاك كان مشغولاً بهذا الموضوع فقط، دون أن يظهر ذلك. إذ كان يختلق المبررات ويدير الحديث ويوجهه نحو ذلك الموضوع.

- أجل يا عزيزي شرف بيك... لا شك أنه يوجد بين موظفيّ، موظفون محترمون جداً... لكن الذين يحلمون حيث هم جالسون، وكأنهم تناولوا أفيوناً، ليسوا قليلين مع الأسف. فهمّ الأفيون ليس همّكم أنتم فقط... ها، قلت أفيون فتذكرت عملنا. يبدو أنني نسيت أن أشرح لكم هذه الناحية...

كنت أستمتع استمتاعاً رفيعاً بالظلم كلما تضايق المدير، إذ كانت حرب خفية تدور بيننا. فيستعمل هو مكره ودهاءه كله لكيلا يفلت الحديث عن موضوع الأفيون، بينما أتهرب أنا بحنكة ودراية، وأصب الحديث في مواضيع أخرى. اقتربنا من جابا. أخيراً حدث ما كنت أتوقعه... سقط القناع الآن. كاد المدير يتوسل إلي، أنني إذا استخدمت نفوذي على الإدارة فإنه يأمل أن يتم هذا الموضوع. مقابل ذلك أشعرني صراحة أنه سيلبي طلبي، إذا كان لي أي طلب. ليس هناك ما أطلبه منه الآن. أو بالأصح لم يبق ما أطلبه. فقد حصلت على ما أريده إذ كنت أستمتع بعمق

t.me/yasmeenbook

بمتعة تركيع إنسان مهم أمامي هكذا. أثناء نزولي من السيارة أفهمته بكلمات لبقة لكنها حاسمة، أنه يجب عدم الإصرار على هذا الأمر.

إذا كانت قصة قريبه المريض صحيحة، فمن يدري كم دهش المسكين وحار عندما رأى سيارة المدير العام تقف على بابه، ولكم فاخر بذلك، ومن أين للمسكين أن يدري لماذا ولمن هو مدين بهذا الشرف ؟

الخلاصة لقد تغير حظي، ولم يعد هناك شك في أن المستقبل صار بيدي.

29 نيسان

صارت أهميتي تزداد يوماً بعد يوم في عالم الأعمال في استانبول. والحقيقة أن هذا يجب ألا يدعو للدهشة.

لم أكن أجهل أنني أحمل بين جوانحي منذ القديم، روح رجل أعمال كبير. لكني لم أكن قد وجدت ما يناسب رغبتي، وما كنت لأجده لولا بعض المصادفات السعيدة، وكنت سأغيب بين طيات متاعب حياة تعيسة. صحيح أنني ما زلت صفراً على اليسار بجانب وحوش عالم الأعمال، لكنني أظن أن اليوم الذي سأركع فيه أولئك أيضاً، ليس ببعيد جداً.

5 أيار

ليس لدي عمل اليوم، فاليوم أحد. خرجنا بعد طعام الغداء في نزهة بحرية مع بضعة أشخاص. فقد اشترى النائب فريدون ضيا قارباً جميلاً بمحرك، قبل بضعة أيام، وبذريعة تجربته خرجنا إلى مرمره، وتجولنا حول الجزر، وعدنا إلى المدينة بعد الغروب.

كنت منتشياً جداً عندما عدت إلى البيت بحيث ظنتني سنيحة سكران، فأنبتني بلهجة بين المزاح والجد قائلة :

t.me/yasmeenbook

- أصدقاؤك سوف يضلّونك عن جادة الصواب يا شرف... أنت لم تكن تعود في الأمسيات السابقة منتشياً إلى هذه الدرجة.

زوجتي تظنني سكران بفعل العرق والشمبانيا، ولا تستطيع أن تعرف كيف يكون السكر بنشوة النجاح والتوفيق.

لم أستطع المكوث في البيت بعد طعام العشاء. قلت لسنيحة حرام أن نقضي هذه الليلة المقمرة الجميلة تحت سقف، وأخرجتها أمامي مكرهة، وخرجت إلى الشارع.

بعد نصف ساعة من التجول في الطرقات مثل طالبَيْن هاربَيْن من المعلمة، وصلنا إلى تلة مشرفة على مرمره بالكامل وعلى المضيق. جلسنا على صخرة ضخمة هناك، أجلست سنيحة مكرهة على ركبتي، ورحت أشرح لها بحماس تخيلي لمستقبلنا المشرق : سيكون لنا بيت كالقصر في " شيشلي " ولن يعود هناك أي معنى لارتباطنا وبقائنا في استانبول، إذ سنمضي القسم الأكبر من السنة في أوروبا.

وبعد ثلاث خمس سنوات سيصل أولادنا إلى مرحلة التعليم الجامعي، لذلك لا بأس من أن نقتني لنا مسكناً مناسباً في سويسرا أو في فرنسا. ثم سوف نقوم بجولات سياحية طويلة في إيطاليا وإسبانيا وأمريكا، بل وحتى حول العالم.

ألححت على زوجتي بالسؤال، كأننا سنسافر غدا :

- قولي من أين نبدأ... يا سنيحة ؟ أين تفضلين ؟

أجابت زوجتي بهدوء :

- أنا أفضل كمليك يا شرف... إن أفضل رحلة تسعدني هي العودة إلى مزرعتنا.

قطع هذا الجواب حماستي فجأة، ففي زمن ما كانت حتى أحلامنا واحدة. وكنا نحار وندهش، للحلم السعيد أو المزعج الذي كان يراه كل منا ويرويه للآخر عند الصباح التالي، لأننا نكون قد رأينا الحلم نفسه مع اختلاف في بعض الفروع والتفصيلات. أما الآن فأنا أحاول أن أصور لها

t.me/yasmeenbook

المستقبل، بينما هي تتحدث عن مزرعة نارلي . حتى أنها عندما أجابتني هذا الجواب، كان هناك ما يشبه التعمد والعناد في نبرات صوتها وفي نظراتها. هل بدأ طريقانا بالافتراق يا ترى ؟

- فكرة غريبة جداً يا سنيحة، ألم تملي من مزرعة نارلي بعد ؟

- ألم نقض أجمل أيامنا هناك يا شرف ؟

- أجل ولكن، هل يجب أن نحمل أصيص التراب فوق رأسنا حتى الممات لمجرد أنه منحنا زهرة ؟

كانت سنيحة تدقق النظر في وجهي. فكلماتي هذه التي اعتدت أن أستعملها في حديثي في حياتي الجديدة مع أصدقائي الجدد، كانت تشبه كثيراً الإيماءات الخفيفة.

ومع أنها ما زالت جالسة على ركبتيّ، إلا أنها أرجعت رأسها إلى الوراء قليلاً ونظرت في وجهي نظرة إصرار فهمت منها أنها هي أيضاً تفكر بهذا.

كنت قديماً أقول لسنيحة :

- لماذا أشعر معك أني طفل صغير، مع أنني رجل وأكبرك بخمس أو ست سنوات؟ أنت صرت في نظري كالأم مريم.

أعادتني نظرتها هذه مجدداً إلى حالتي تلك في ذلك الزمن. فقدت ثانية أملي الجديد في محيطي الجديد، وعدت ذلك الشاب القروي القديم الذي غرق في وَجْد العبادة أمام صنمه الصغير.

سكتنا، لأننا فهمنا كفاية ما يريد أن يقوله كل منا. وسيكون الكلام محاولة لتضليل أحدنا الآخر، وسيكون هذا معيباً.

خفضت رأسي أيضاً مثل المرات السابقة، وقلت :

- ألست أنت من أتيت بي إلى استانبول وأقنعتني بأن أعيش حياة أحسست أنك لا ترتاحين لها ؟

يبدو أنني عثرت على أحسن ما يمكن أن يقال لها. لم تبدل سنيحة من رزانتها، لكنها لانت وقالت :

t.me/yasmeenbook

- أجل ولكن، كان ذلك ضرورياً، إذ كنت أرى أنك لست سعيداً في حياتك هناك. أنا لن أقول من أجل نفسي؛ لكن أسلوب المعيشة ذاك لم يكن يريحك. فقد حلت عليك تعاسة ما، استياء ما، كنت لا تفتأ تردد " أنا سأعيش وسأموت هنا مثل نبتة... أنا لا شيء ! "... كنت تقول " ما الفرق بيني وبين أُجَراء أبيك ؟ "... شيء خطير أن يرى الإنسان نفسه صغيراً يا شرف. لذلك أردتُ أن تجرب حظك في استانبول... أردتُ أن تعرف أنك لست لا شيء... هذا كل ما في الأمر !

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما عدنا إلى البيت. أرسلت سنيحة للنوم. أما أنا فتذرعت بمسألة حسابية يجب أن تكون جاهزة غداً حتماً، ونزلت إلى غرفة المكتب. لا شك أنني الآن وفي هذه الساعة مشغول بالحسابات على رأس منضدتي... ولكن بحسابات حياتي السابقة.

فقدت أبي في السنة التي تخرجت فيها من المعلمة. أبي الذي لم يدعني أفكر بهموم تكاليف الحياة حتى سن الرابعة والعشرين. ولم يكن لي في استانبول قريب، أو صديق حميم.

لذلك ما أن تخرجت حتى كنت مضطراً لأن أذهب إلى كمليك لأعمل موظفاً صغيراً مغموراً في ماليتها.

لن أنسى مرارة الأشهر الأولى في كمليك. كنت في سن أرى فيها آمال سنوات الدراسة تتساقط كدساً كدسا مثل أوراق الخريف. ويبدو أن هذا هو حال كل شاب في وضعي. إذ تمتلئ مخيلتنا في المعلمة بمختلف الأحلام اللامعقولة، ثم تأتي الحياة وتنظر في مقتضياتها واحداً واحدا.

بدت لي الأشهر الأولى من حياتي الوظيفية خانقة جدا. انشغال طوال النهار في الغرف المغلقة، بأشياء لا لون ولا أهمية لها. رجاء تارة، وشجار تارة أخرى، وإسناد رأس وإغفاءة على طاولات ملأى ببقايا طعام ورماد سجائر... وعند المساء شيء من تبادل الأحاديث في حديقة المقهى، وشكوى من هموم المعيشة... ثم عودة إلى البيوت الضيقة، وإلى الأولاد الذين يزحفون أمام الأبواب، بربطة خبز في منديل أحمر، وزجاجة عرق يبدو جزء منها... هكذا دوماً، هكذا حتى الممات.

t.me/yasmeenbook

كانت السهرات الليلية التي تقام بين الحين والآخر التسلية الوحيدة في هذه الحياة. دعوني أنا أيضاً إلى بعضها في الأشهر الأولى. ولا يمكنني أن أنسى إحداها، حيث دعينا تلك الليلة إلى سهرة في بيت محاسب مسن يقال إنه كان يربط أولاده إلى عمود في ساحة البيت ويضربهم.

كانت غرفة متهدمة، ذات سقف أسود منخفض، مائدة عديمة الترتيب... منضدة وضعت الزجاجات في وسطها، وعجّت بالأطباق الصغيرة... وعلى البسط المرقعة الممدودة فوق طاولتين متهدلتين، صينية تبغ، وعود، ودفّان.. كان كبار الموظفين مدعوين أيضاً إلى هنا هذه الليلة. دار الحديث من هنا وهناك فترة من الزمن. وجرى الحديث بسوء وشناعة عن زميل لم يحضر بسبب مرضه. ازدادت الوجوه احمراراً كلما ازداد السّكر، وانتصبت الشوارب الكثة الطويلة، وتوحشت الكلمات والحركات توحشاً مفزعاً. وعندما خلعت السترات السوداء القديمة تغيرت المظاهر، وظهرت الأردية المعقودة عند الأكتاف، والزنانير الحمراء العريضة.

كان بين الضيوف مدير ناحية يجبر رئيس الحرس على احتساء العرق، ومنادي محكمة يمسك برقبة كاتب السجل ويحاول أن ينهضه إلى الرقص.

اشتدت حرارة الجو تماماً، وملأ صخب العود والدف الهواء المشبع بروائح العرق ودخان التبغ، بضجيج لا يحتمل، وأخذت أرضية الردهة العتيقة تئن تحت أقدام الراقصين.

اقترب مني معلم مدرسة، مرعب الشكل، طويل الشاربين، وطوّق عنقي بذراعيه اللتين كان قد شمر عنهما قبل قليل ليريني آثار الضرب المبرح الذي ضربه إياه مكافحو تهريب التبغ، وقال :

- أخي شرف بيك. هذا العالم غير موجود عندكم في استانبول... فالأخوة والمساواة تبقى في النطاق النظري ... انظر إلى هذه الحميمية... لا آمر ولا مأمور... يا لسعادتي وفرحتي... أترى كيف نتسلى ؟

t.me/yasmeenbook

شرح لي مطولاً وذراعاه حول عنقي، وحرارة أنفاسه الكريهة في وجهي كيف يُرقّصون النساء في القرى، ووعدني قائلاً :

- سآخذك وأصطحبك معي إن شاء الله في أول سهرة تسلية... وهناك سوف ترى أصدقاء الروح الحميمين.

لفت سكوني انتباهه، ولم يجده طبيعياً. وكان يحتد ويحنق كلما لاحظ أنه لم يستطع أن يضحكني، أو أن يجعلني أهتم بما يقول :

- أخي شرف بيك... لا بد أنك مغرم بإحداهن في استانبول... لا تتضايق يا رجل... كلها مسافة أربع ساعات... بإمكاننا أن نهرب بين حين وآخر، فتقابل أنت حبيبتك الغالية... ونصيب نحن أيضاً شيئاً ما من هنا أو من هناك...

شكّ المعلم بأمري عندما لم تفلح وعوده هذه أيضاً في إسعادي. فثبت عينيه الزائغتين في عينيّ وقال :

- يا أخي شرف بيك، إذا بقيت هكذا جامداً بارداً فسوف يشتبهون بك... ويقولون عنك متكبر وما شابه... بعدها ستندم على هذه العوالم.

ولكي يعطيني درساً وعظة، شرح لي حكاية موظف استانبولي.

- احتضناه على أنه رجل محبوب، وعاملناه كأخ. أما هو فراح يزداد غروراً، ويزم فمه كأنه لم يعجب بنا. قلنا له لا تفعل، لا تعمل. لكنه لم يصغ إلينا، وراح يتحدث عنا هنا وهناك. كان هناك قائم مقام يدعى خورشيد أفندي... رجل ظريف ولطيف، حلو المعشر بشكل مدهش... ألا يتهم الرجل المسكين بأنه يرقص بالملاعق الخشبية... رموا الرجل وأبعدوه على عجل... إه، ونحن ثأرنا منه، ولم نترك فعلته له. هكذا يا أخي شرف بيك... أما قلت لك لا تظهر برودا... هذه نصيحة أخوية.

بعد النصيحة الأخوية أجبرني المعلم على احتساء كأس من العرق، ودس في فمي ملعقة سلطة. ثم قبّل وجنتيّ وعينيّ وغادرني.

ارتفعت حرارة العزف والرقص جيداً، بحيث صار وقع ضربات أقدام الراقصين يهز ضوء المصباح الذي فوق المنضدة. حاولوا تسوية الفتيل بقصه بالمقص؛ لكنه لم يصلح.

t.me/yasmeenbook

اقترب صاحب البيت مني، وقال :

- أيها الشاب، أنت بطبيعة الحال لا تشارك في الرقص، فلأعينك مسؤولاً لمراقبة حركة المصباح . تنزل الفتيل كلما انبعث منه دخان.

سحبت نفساً عميقاً، وحملت كرسيي إلى الزاوية التي بجانب المنضدة. عيني على لهب الضوء الذي بداخل الزجاجة المشحّرة وإصبعي على لولب الفتيل. سهوت غافلاً... وحين كنت أنسى أحياناً إنزال الفتيل، كانوا يصرخون بي من كل جانب :

- لا تغفُ أيها الشاب !... سوف تخنقنا بالدخان...

على الجدار لوحتان مكتوبتان بالحرف العربي بين بعض الأزهار المشغولة، وقد استحالت ألوان خيوطها الحريرية.

إحداها عن الصبر، والأخرى عن التوكل على الله.

لبثت فترة طويلة لم أستطع تحويل نظرات عينيّ عن اللوحتين. لا بد أن زوجة صاحب البيت التي يقال إنها مقعدة الآن، قد اشتغلتهما في المرحلة التي كانت تذهب فيها إلى المعلمة الرشدية، وعليها ملاءتها. بدت لي هاتان اللوحتان تلك الليلة كحكاية عمر بأكمله.

لم أعد أسمع الصخب والضجيج. كنت أفكر بنفسي. قد لا أستطيع التخلص من هنا مرة أخرى. وقد يتوجب عليّ تحمل هذا النمط من الحياة إذا أردت البقاء حياً. ربما سوف أعتاد أنا أيضاً هذه التسالي، وربما سأشبك يدي بأيدي هؤلاء الرجال وأدبك معهم الدبكة، وسأقدم النصائح للقادمين الجدد.

سوف أحتفظ بهذه الليلة في ذاكرتي، كأسوأ وأشأم ليلة في حياتي.

وتمر الشهور، ولا أستطيع التلاؤم مع هذه الحياة بأي شكل. سنحت لي فرصتان للانتقال إلى مكان آخر. لكني خفت من التغلغل أكثر في جوف الأناضول. فهنا يوجد بحر على الأقل. وسوف أفقد هذا أيضاً هناك.

*****

t.me/yasmeenbook

تضايقت كثيراً في أشهر الشتاء؛ لكن الربيع أراحني نوعاً ما. إذ صرت عندما أنهي أعمالي أهرب من المدينة، فأتجول في أطراف المدينة حتى أوقات متأخرة. كان هناك مَكلس مهجور فوق تلة، وكنت أصعد إلى هناك في كثير من الأحيان، وأراقب غروب الشمس في بحر مرمره.

وفيما كنت أفكر ساهماً هناك أيضاً، في إحدى الليالي، سمعت فجأة صوت أحدهم من الطريق السفلي يناديني :

- شرف بيك!... شرف بيك !... هلا تأتي إلي قليلاً !

لم تكن هناك معرفة بيني وبين الرجل الذي يناديني، كنت قد رأيته من بعيد بضع مرات، وقيل لي إنه طبيب عسكري أحواله المادية والمعاشية جيدة، وأنه اشترى بيتاً واستقر هنا بعد أن أحيل إلى التقاعد، وأنه يمارس مهنة الطب كهواية، ولا يتقاضى أجوراً من المرضى.

أن لا يجد مكاناً آخر غير كمليك يقيم فيه، رغم أن أحواله المادية والمعاشية جيدة، وأن يمارس الطب كهواية، وألّا يتقاضى أجوراً من المرضى ! هذه أمور لم تكن مفهومة لي. لا بد أنه رجل أصيل. لم أستغرب معرفته اسمي، ودعوته لي بلا تكلف لأذهب إليه، فلا بد أن أحدهم حكى له عني.

عندما ذهبت إليه قال :

- اعذرني يا ولدي، كنت سأصعد إلى هناك. لكنني لم أجرؤ... فالإنسان بعد عمر معين، يصعد إلى الأماكن المرتفعة بقلبه لا بقدميه... فلأعرفك على نفسي.

قلت مبتسماً :

- لا تتعب نفسك يا سيدي... إني أعرفك.

هو أيضاً لم يستغرب هذا، وقال :

- صارت المسألة أكثر سهولة إذن، رغبت بالتعرف عليك قليلاً، هذا كل ما في الأمر... بيتي هو هذا البيت الأبيض الذي يبدو بين الأشجار المقابلة؛ إنه يرانا كما نراه نحن الآن، ويرى البئر المكلسة التي فوق التلة.

t.me/yasmeenbook

منذ عدة ليال وأنا ألمح شخصاً هناك في هذه الساعات. خمنت أن تكون أنت هذا الشخص، وعندما رأيتك الآن أثناء مروري من هنا زال شكي. وكنت قد رأيتك في السوق بضع مرات. وفي إحدى المرات سألت رئيس المعلمين عنك فقال : " يبدو أنه شاب طيب، لكن له بعض الأحوال الغريبة، إنه لا يقترب من أحد. " وطبعاً لم أستطع أن أقول له " ولأي شيء فيك يقترب منك؟" لكن مقولته هذه صارت علامة جيدة لصالحك... إذ فكرت وقلت في نفسي : " يجب أن أصادق هذا الشاب "

لا بد أنني كنت أبتسم، إذ قال :

- تبدو عليك الدهشة، لكنني كما ترى رجل غريب غير أصم تماماً... الشبان الذين في سنك لا يرتاحون لصداقة المسنين، ولكن هل تعجبك مثل هذه الصداقة ؟

كان هو المتكلم دائماً، ورغم أنني لم أفتح فمي ، إلا أنني وكأنني قلت له أشياء كثيرة، قلت :

- بل أظن حتى أننا صرنا صديقين يا سيدي.

وفي عتمة المساء التي بدأت تهبط رويداً رويدا ، رحنا نتعقب ببطء الدرب الضيق الذي كان يظهر تارة ويغيب أخرى بين الأعشاب والأشواك.

- بماذا كنت تريد التفكير، فتصعد إلى تلك التلة ؟

- لا شيء... ولكن ثمة أشياء طفولية كثيرة يا سيدي!

توقف، نظر في وجهي، وقال :

- بالعكس أنا كنت أظنك تفكر بشيء واحد فقط.

ضحكت، وقلت :

- أؤكد لك يا سيدي أنه ليس كذلك، فأنا لست بعاشق.

وبابتسامة تنم عن أنه لم يصدقني كثيراً، قال وهو يتابع النظر في وجهي :

- ذاك أيضاً سيحدث... ذاك أيضاً سيحدث قريباً أو بعيداً، فتجولك في تلك التلال في الأمسيات مثل راع فقد قطيعه، ومراقبتك الغروب

t.me/yasmeenbook

بمفردك دليل على أنك تنتظر ذلك. وماذا يفعل كل شاب في مثل سنك ؟ مع ذلك عليك أن تكون سعيداً الآن، لأنه لا يوجد شيء من هذا.

- أوافقك الرأي يا سيدي.

تركني، وراح ينظر إلى البعيد. عدنا إلى المسير ثانية. وبعد بضع خطوات توقف مرة أخرى وقال :

- ولكن مع ذلك يجب عدم السرور بهذا كثيراً... فماذا يوجد في هذه الدنيا غير ذلك ؟ فليبتله الله !... على كل حال، يجب عدم البحث في ذلك كثيراً.

فقلت :

- أظن أن هذا أسلم شيء يا سيدي.

كان متكئاً بإحدى يديه على عصاه، وبأصبع يده الأخرى راح يضرب على كتفي ضربات، كم كانت شبيهة بضربات طبيب مختص يفحص بأصابعه ليفهم ما بداخل كياني. وقال :

- سؤال آخر، طالما أنك لست عاشقاً، فأنت شاعر إذن... لأن ذلك أيضاً يجعل الإنسان يتجول طليقاً في الوديان والتلال، مثل أفعى البراري.

هذه المرة أجبت بثقة أكبر :

- ليس هذا أبداً يا سيدي... أقسم على ذلك بشرفي.

كان اعتراضي هذا طفولياً جداً، بحيث ضحكنا كلانا.

- لم أحاول كتابة شطر بيت في حياتي.

- علامَ يدل هذا ؟

شيئاً فشيئاً صرت أكثر صراحةً، فقلت :

- أظهرت لي تقرباً في وقت لم أكن أتوقعه أبداً يا سيدي، أرى أنك إنسان مختلف تماماً، وأدرك أنه من المعيب إخفاء الحقيقة عنك. أنا مجرد إنسان أريد أن أكون ناجحاً. أن أكون أحد كبار رجال الأعمال الذين يديرون هذه المدينة وهذا البلد مثل الزنبرك... وعلى هؤلاء أن يربحوا ثروة كبيرة أولاً. وطبيعي جداً أن أكون أنا أيضاً كذلك يا سيدي... لكن

t.me/yasmeenbook

متعتي الأساسية في أن أظهر أنني لست رجلاً عادياً، وأن أعمل أشياء كبيرة لهذا البلد المهمل... إني أرى في نفسي هذه الروح بل وهذه الكفاءة. ما أطمح إليه حين أتأمل الغروب من التلة، ليس خيالاً وردياً، بل أتمنى أن أرى مصنعاً حديثاً على هذه الصخور في الأسفل، وأن أرى في البحر باخرة جاءت لتحمل البضائع التي أنتجها هذا المصنع... وأنت ترى أن هذه أمور مادية ليس لها علاقة بالشعر.

تحولت أصابع الطبيب الآن من كتفي إلى جبيني ثم إلى صدغيّ، ثم ابتعد عني بعد أن صفعني برفق على خدي، وبتهكم ممزوج بالرقة قال :

- وهل يمكن للشاعر أن يكون أرقى من هذا يا ولدي ؟

وبلهفة غريبة، أخبرته عن حياتي كلها، وعن مشاريعي المستقبلية. وعندما أنهيت حديثي كان الليل قد حلّ، وكنا قد وصلنا أمام سور حديقة مختف تماماً بين الأشجار التي تحيط به من أمامه ومن خلفه. كان هذا بيته الذي يعيش فيه وحيداً مع خادم عجوز.

توالت زياراتي للطبيب العجوز في هذا البيت. لكن هذا التقارب كله، وهذه الصداقة التامة بين شاب في سني وبين هذا العجوز... استمرت فترة قصيرة جداً للأسف.

* * * * *

مرّ الطبيب عليّ في بيتي صباح يوم جمعة، وكنت واقفاً عند النافذة، فخاطبني من الزقاق، وهو لا يريد الدخول إلى البيت :

- هيا ارتد ثيابك... أيها الشاب... إننا ذاهبان سوية إلى مزرعة نارلي.

لم أسأل عن سبب هذه الرحلة. إذ كان هو أيضاً لا يعرف السبب في كثير من الأحيان. وكثيراً ما حدث أن غيرنا برنامجنا بعد خروجنا إلى الطريق، فنخرج في رحلة بحرية مع صيادي السمك، بعد أن كنا سنتنزه في الحدائق. كان الهدف أن نكون سوية، وبدأ هذا يشكل لي حاجة أحتاجها. وأكثر من هذا، صرت أنا أيضاً مثله إنساناً كثير الكلام،

t.me/yasmeenbook

أدخل في مناقشات حادة، ويخطف أحدنا الكلام من الآخر، وكثيراً ما كنا نسكت طويلاً، ويغيب كل منا مستغرقاً في أفكاره، وهنا كان يكمن سر الصداقات الكبرى.

هكذا كنا نفعل أيضاً عندما كنا نشق طريقنا المظلّل إلى مزرعة نارلي ببطء داخل عربة يجرها حصان. وكنا نصادف بين الحين والآخر بعض القرويين المتوجهين إلى المدينة، وكان الطبيب يعرف بعضاً منهم، فيوقف العربة ويحدثهم، بل ويكتب الوصفات الطبية للمرضى منهم. وهكذا قطعنا الطريق إلى مزرعة نارلي الذي يستغرق نصف ساعة بساعة ونصف أو ساعتين.

كنت أخمن أن الطبيب لديه مريض هناك، وكنت أفكر بأن أتجول في أرجاء المزرعة بمفردي أثناء انشغاله بعمله.

كانت هذه أشبه بغابة منها بمزرعة، وهي لباشا قديم من باشَوات القصر يدعى عزيز باشا، تخلى نهائياً عن الاتحاديين بعد العهد الدستوري، وغادر استانبول وجاء ليقيم هنا.

كانوا في كمليك يروون عنه أشياء غريبة، كما كانوا يحبونه في الوقت نفسه. كان الباشا يدّعي أنه مزارع، لكن كان مفهوماً أن هذا نوع من أنواع البهرجة والأبّهة. وكان الطبيب أيضاً يقول في هذا الصدد مازحاً : " إنه شيء من قبيل أن يراه الأصدقاء أثناء التعامل معه... وإلا أين الثرى من الثريا؟".

كنت قد رأيت عزيز باشا من بعيد أثناء ذهابه إلى استانبول وعودته منها على متن الباخرة نيلوفر التي كانت تمرّ بكمليك يومين في الأسبوع. كان رجلاً بديناً قصيراً، ذا لحية رمادية، في الخامسة والستين من عمره. وكان أهل المدينة يقولون إنه يذهب إلى استانبول ليلعب القمار، ويقيم علاقات غرامية.

قال الطبيب الذي لاحظ عدم نزولي من العربة أمام باب المزرعة :

- ماذا تنتظر ؟

t.me/yasmeenbook

- سأنتظرك هنا، بعد إذنك.

حار وقال :

- ما المناسبة ؟ الباشا ينتظرك !

تملكتني الدهشة فجأة، فقلت :

- في هذه الحالة سوف أسألك أنا أيضاً السؤال نفسه، ما المناسبة ؟ من أين يعرفني الباشا ؟ أي عمل يمكن أن يكون له مع رجل عادي مثلي؟.

- أنا كلمته. سوف تعطي ابنه في غالاطاسراي دروساً بضعة أيام في الأسبوع... رسّبوا الولد في مادة أو مادتين... تكسب خمس أو عشر ليرات.

- لكنك لم تخبرني بذلك قبلاً.

- يعني هل تنتظر مراسيم ؟

نزلت من العربة دون أن أتفوه بكلمة، إذ كنت قد اعتدت أطوار وأحوال الطبيب هذه، وبدأت أشعر بشيء من المتعة الغريبة نتيجة وضع إرادتي في يد هذا الرجل. وقلت:

- كنت ارتديت أفضل من هذا لو أخبرتني قبلاً.

مع ذلك كنت دائم الاهتمام والاعتناء بهندامي حتى في أسوأ أوقاتي. وكان هذا من الأسباب التي تبعدني عن زملائي الموظفين، إذ كنت أدرك أنهم وبسبب اهتمامي بهندامي هذا، يرونني رجلاً ابن مدينة معجباً بنفسه.

لاحظ الطبيب ترددي وانزعاجي قليلاً أثناء عبورنا الحديقة الأمامية للمزرعة، فأمسك بذراعي، وسألني :

- يقولون هذا وذاك عن هذا الرجل. لكن عزيز باشا رجل محترم. وهل هناك سبب أحسن من هذا لكي ينظروا نظرة سوء إلى رجل ما في مجتمع ما ؟ ثم إنه لا يتورع مطلقاً عن قول كلمته... ويسلق الذين يتصرفون ببلاهة ورعونة سلقاً بلسانه. ولأن تصرفاتهم كلها وفي كل يوم ليست إلا بلهاء أو رعناء، فإنهم لا يستطيعون التخلص من لسانه، لذلك آخذك إليه.

- هل ليسلقني أنا أيضاً ؟

t.me/yasmeenbook

ضحك وهو يضربني على خدي ضربة خفيفة، وقال :

- لا تتظرّف. أنت أيضاً لديك بعض البلاهة والرعونة، ولكن بشكل آخر... مهما يكن سوف ترى.

* * * * *

وجدنا الباشا في أحد الإسطبلات، إلى الأمام قليلاً، يعالج جرحاً في ساق حصان روسي ضخم من أحصنته، ويصرخ في وجه خادم ضخم مسلح ذي قبعة ويقول :

- عليك أن تأخذه وتغطسه في النهر أربع مرات في اليوم.... وإلا فلست مسؤولاً عما سيصيبك !...

حاول الخادم أن يشرح شيئاً بصوت منخفض، لكن الباشا نَهَر المسكين بصوت قاس قائلاً :

- ماذا يفهم ذلك الحمار من مثل هذه الأمور ؟ إرمِ أدويته. ذاك حمار، ليس بيطرياً، ولا يمكنه أن يكون حتى طبيباً !...

فقال صديقي العجوز المتكئ على طرف عربة يد مكسورة أمام الإسطبل:

- بعض اللطف يا باشا.

فأجابه عزيز باشا وهو يغسل يديه في وعاء نحاسي كبير :

- لا علاقة لذلك بشخصك يا عزيزي... إني أتحدث عن المهن.

- إيه، وهل الطب أدنى من البيطرة ؟

فأجابه عزيز باشا :

- وماذا تحسب إذن... فالطبيب بقليل أو بكثير ينشغل بمداواة حيوانات من جنسه... والبيطري ينشغل بمعالجة حيوانات من نوع آخر ذوات لغات مختلفة... ناهيك عن أننا نكون ثلاثة أحياناً ولا نفهم أقوال بعضنا.

كان الطبيب يضحك وهو يقول :

t.me/yasmeenbook

- منطق حسن يا باشا ، منطق حسن.

صرخ الباشا وهو يجفف يديه بمنشفة قدمها له الخادم :

- ولك ما هذه القذارة ؟ أهي خرقة مسح الأواني أم ما هذه ؟ ثم إن وظيفة البيطري أكثر فائدة من وظيفة الطبيب، فالحيوان الذي ينقذه الطبيب البيطري يتابع عمله بهدوء وطاعة تامة، فهل تعرف أي أعمال قذرة يقوم بها في هذه الساعة بعض أولئك الذين استطعت إنقاذهم.

- يعني أنت هكذا تصير فوضوياً تماماً يا باشا ، وهذه دائماً عاقبة المغرمين بالدولة.

وفيما كانا مسترسلين في أحاديثهما بهذا الشكل، راحا يتمازحان بالأيدي أيضاً، بحيث أدركت أن علاقتهما حميمة جداً، ولم أكن أتصور أن صديقي العجوز رجل مهم لهذه الدرجة. وكان يبدو أن الباشا غير منتبه لوجودي هناك. وفيما كانا يتحادثان، أحسست بضيق غريب ورحت أفكر " لقد أخطأت، ما عملي أنا بين هؤلاء الرجال الكبار ؟ لقد أنزلت نفسي إلى منزلة الأولاد."

فجأة التفت الباشا إلي قائلاً :

- أشكرك على أنك أتعبت نفسك يا سيد شرف، أخبرني الطبيب أنك شاب ملفت للنظر. ولكن للأسف !...

دهشت لهذا. أليست معرفته حتى اسمي أمراً مثيراً للدهشة ؟ يبدو أن الطبيب حدثه عني مطولاً. وكان واضحاً أنه رجل غريب يشبه صديقي العجوز.

أحسست كأن ضيقي قد زال.

قال عزيز باشا :

- ما رأيكم باحتساء القهوة تحت القصر يا أولاد ؟ سليمان، أحضر لنا ثلاثة مقاعد... أو، الأحسن هات هذه الحصيرة وتعال.

كان ما سماه عزيز باشا تحت القصر، عبارة عن أسفل شجرة دلبة ضخمة عمرها مئة سنة. قال عزيز باشا وهو يهز رأسه أسفاً :

t.me/yasmeenbook

- كانت شجرة الدلبة هذه شيئاً ضخماً هكذا أيضاً عندما كنت لا أزال طفلاً صغيراً بهذا القد. كنت أمشي فوق أغصانها كأنني أتجول في الصالة، وأعرف كافة درجاتها الخفية التي توصل إلى أعلى قممها. وكانوا في المزرعة يسمونها " قصر عزيز باشا ". أليس أمراً غريباً، لقد منحني العمال والخدم لقب باشا منذ ذلك الوقت. صار عزيز باشا المسكين عجوزاً الآن، وما عاد يستطيع صعود درجات القصر. لكنني سوف أجرب مرة قبل أن أموت. إذ كنت قد كتبت بعض الكتابات بالسكين، سوف أرى إن كانت لا تزال موجودة بعد ؟

*****

المهم أن الباشا سرَّ مني كثيراً، وأراد أن يريني مزرعته بنفسه. أعطيت الحق لأولئك الذين شبهوا هذا المكان بغابة صغيرة أكثر من تشبيهه بالمزرعة؛ فحدائق الأشجار المثمرة التي تغرد عليها عصافير الدوري، غائبة بين كتل وكتل الأشجار والطرقات الضيقة التي تؤدي إلى ساحات معتمة... ساحات تجبر الإنسان على التفكير بأشياء لا معقولة، تغويه وتضلله. كان قد ترك البناء القديم لعماله، وأمر ببناء قصر صغير له بجانب حوض ماء كبير.

كان صبي ناحل قصبي اللون، مشغولاً بالتقاط صورة لكلب ضخم، ناداه عزيز باشا قائلاً :

- دع ذلك وتعال إلى هنا يا عدنان. انظر، لقد جاء معلمك. ثم التفت إلي وقال :

- هناك في الطبيعة نظام وتوازن مدهش يا عزيزي... عدنان بعكسي تماماً. نحن والشكر الجزيل لله أكلنا ونظفنا ما ترك لنا الوالد. أما هو فإنه بلا شهية مطلقاً والحمد لله. لذلك فلن يتأثر كثيراً إذا لم أترك له شيئاً يأكله... ولد مهذب، لكنه كسلان للغاية... ليكن الله في عونك يا سيد شرف. اسمع ما أقوله لك يا عدنان، إذا لم تنجح في الامتحانات

t.me/yasmeenbook

التكميلية فقد انتهيت ! والله أخرجك من المعلمة، وأجعلك تابعاً لعلي الراعي. ما هي المواد التي بقيت عليك للتكميل ؟ أولاً العلوم الدينية، أليس كذلك ؟ إن عدم استعدادك لهذه المادة وراثي يا بني... ليس لدي كثيراً مما أقوله، ولكن لا شك أنك ستدرسها جيداً... معلمك أيضاً لا يبدو عليه أنه رجل سوف يعير هذه المادة اهتماماً كبيراً، ولكن ستفعلان شيئاً ما. ثم أظن أن لديه تكميلاً في مادة الحساب.

تلميذي كان ولداً لطيفاً حلواً سلس القياد. وفيما كان عزيز باشا والطبيب يلعبان طاولة النرد، أحضر لي عدنان كتبه، اتفقنا على الأيام، ووضعنا برنامجاً، ثم طلب تلميذي أن يلتقط لي صورة.

*****

صرت أداوم ثلاثة أيام في الأسبوع في مزرعة نارلي، وصار ذلك بالنسبة لي عملاً شاغلاً ممتعاً. إذ كنا نخرج إلى الحديقة فور انتهاء الدرس. أنا لا أعرف كيف علمته الحساب ودروس الدين، أما هو فقد علمني التصوير بسرعة.

كثيراً ما كان عزيز باشا يستبقيني على العشاء، ويرسل عربته لإحضار الطبيب. كان عزيز باشا رجلاً مجرباً خبر الحياة، ومثقفاً كثير القراءة. هو أيضاً مثل الطبيب له تحت تصرفاته العبثية، جانبه الوقور المتزن، ومشاعره الخفية.

كنت قادماً إلى الدرس في أحد الأيام، حين صادفت الباشا عند حديقة المزرعة الخارجية. كان يشير بعكازه إلى بعض الأشجار ويشرح بعض الأمور لفتاة شابة ترتدي ملاءة. أطرقت رأسي إلى الأمام وأردت العبور بتحية متحفظة. لكنه هو الذي ردني عن طريقي :

- لا تهرب يا سيد شرف، ليست غريبة، إنها أميرتي. أنهت مدرستها الفرنسية في بنغالتي، وجاءت إلى هنا لتعمل في الزراعة. لماذا تقف هكذا ؟ أقدم لك ابنتي. قدمتك لها على أنك رجل متمدن.

t.me/yasmeenbook

رفعت رأسي متضايقاً، والتقت نظراتي بنظرات ابنة عزيز باشا لحظة.

تابع الباشا قائلاً :

- منذ مدة طويلة وأنا أعيش بعيداً عن الأميرة. كان ذلك صعباً علي، ولكن ماذا أفعل ؟ لا يمكن أن تبقى بدون تعليم وتربية. أما الآن فسوف نجدد عهد المحبة مع الأميرة. اشتكت الفتاة ضاحكة :

- أرجوك لا تردد كلمة الأميرة هذه يا أبي الباشا....

- لا يا سنيحة... قالوا عني باشا، باشا، حتى جعلوني باشا... وأنا قد أجعلك أميرة وأنا أقول أميرة أميرة... اعتاد الأمراء المصريون الآن على الوقوع في مصيدة النساء البيضاوات...قد يكون نصيبك أنت أيضاً أحد الأغنياء. أنا لا أعرف كثيراً فيما علمتك إياه الراهبات، لكنك تتكلمين الفرنسية بطلاقة ما شاء الله...

بدا على الفتاة كأنها استاءت من هذا المزاح، لكن الباشا عندما لاحظ ذلك زاد من هجومه :

- أنت لم تكوني تستائين قديماً، فلماذا تستائين الآن ؟ هل لأنك دخلت فعلاً إلى سن الزواج ؟

ضحكنا ثلاثتنا. وعندها تجرأت على النظر إليها بدقة.

فتاة شابة شقراء مليحة الوجه ذات عينين عسليتين. توسّطنا الباشا وبدأ يمشي :

- سنيحة لم تكن مغفلة مثل عدنان... الحقيقة أنها اجتهدت اجتهاداً جيداً جداً، وحصلت على شهادة لا بأس بها... فرنسيتها سليمة... لكن تركيتها سيئة للغاية... وخاصة كتابتها، (أشار برأس عكازه إلى دودة أرض) ضع هذه فوق ورقة... ودعها تدخل امتحان كتابة مع سنيحة...

توقف عزيز باشا فجأة، ووضع يده على جبينه وقال :

- ياللروعة، خطر ببالي يا سنيحة، فليساعدك السيد شرف قليلاً في لغتك التركية... ماذا تقولين ؟ سيكون ذلك رائعاً، رائعاً... انشغل مع ابنتي أيضاً قليلاً اعتباراً من الدرس القادم إكراماً لله يا سيد شرف...

t.me/yasmeenbook

- يبدو إعطاء رجل شاب دروساً لفتاة شابة أمراً مشبوهاً هنا، ولكن لا بأس... بل قد يكون أفضل... إذ لا يرسلون خطّاباً لرؤيتك بين الحين والآخر، ويدخلون القلق والخوف إلى قلبي... كما قلت، نحن على وشك الخروج الآن لصيد أمير مصري..

فقالت البنت :

- أتأذن لي بالدخول إلى الداخل يا بابا. فلدي بعض العمل.

أمسك عزيز باشا بيد الفتاة قائلاً :

- عفواً يا أميرة، التوبة... لن أتفوه بمثل هذه الأشياء مرة أخرى... قد نتحدث عن الأمير المصري فيما بيننا إذا استدعى الأمر... الآن في هذه الساعة لدينا عمل أسرع من ذلك... فليجهزوا العربة لنخرج للنزهة... سنذهب حتى رأس النبع.

وعندما أصبحت العربة جاهزة بعد قليل، قال الباشا :

- أعتذر منك يا أميرة، فمن المعيب أن أقلك في عربة نقل الخضار، بعد أن هيأتك لحياة راقية، ولكن لا بأس، إذ لم يخطر ببالي قبلاً... سأحضر لك عربة جديدة من استانبول قبل مرور أسبوعين... وستكون بمثابة هدية تخرجك.

وحدثت ملاسنة صغيرة بين الأب وابنته. إذ رأت الفتاة أن هذه العربة الجديدة ستكون ترفاً لا لزوم له، وهي بطبيعتها لا تحب مثل هذه الأمور. بينما كشف الباشا بدون تحفظ عما يكمن خلف كلامها، قائلاً :

- يقولون عني أنني مسرف، وأنني مدين، ولا بد أن ذلك وصل إلى مسامعك... وأنت بحسب عقلك وتفكيرك تريدين حمايتي أليس كذلك ؟ انظري إلي أيتها الأميرة... أهلاً بكل نزواتك... لكنني لا أتحمل أن تديري أنت شؤوني. سوف نختلف فوراً.... أو لم يكن هذا سبب خلافنا مع المرحومة أمك ؟ والآن إذا حاولت أن تصبحي وصية علي فسوف نتخاصم... لا يمكن قيام سلطنة نسائية في بيتي... إني رجل أدرت دولة... وإذا قلت : " كيف أدرتها ؟ " فتلك مسألة أخرى...

t.me/yasmeenbook

حارت الفتاة، إذ لم تكن تتوقع أن يتحدث أبوها بهذا الوضوح عن مسائل عائلية داخلية، أمام رجل غريب، فبادرت تقول ضاحكة بارتباك وحياء يدلان على أن كلام الباشا صحيح أكثر من اللازم :

- ما هذا الكلام يا أبي الباشا ؟ أرجوك.

لكن الباشا لم يكن يصغي إليها، إذ التفت إلي وقال بانفعال أكثر:

- لا تحب الترف... هل تقولين هذا لي ؟ الست أنتِ من قلت لي يوماً في استانبول، وأنت تنظرين بحسرة إلى سيارة وزير وتبكين : " لو كنت أنت أيضاً وزيراً لاشتريت لي واحدة، أليس كذلك يا أبي ؟"

- أرجوك يا بابا، كنت حينها طفلة بقد الإصبع...

- كلكن سواء، من كانت منكن بقد الإصبع، ومن كانت بقد الحور... أنا لست وزيراً، أنا رجل مطرود من باب الدولة، ولكني نكاية قد أستجلب لك سيارة بدلاً من العربة... إنما في أي الطرقات سنقودها ؟ جازاها الله ! أترى يا سيد شرف... أنا لا أعرف ماذا أتحايل لكي أسعدها قليلاً علني أستطيع إبقاءها عندي سنة أو سنتين... وهي ماذا تقول لي...

أغلقت سنيحة فمه بيدها هذه المرة :

- افعل ما تشاء يا أبي الباشا... ولا تتكلم هكذا....

- تعال ولا تنفعل... ستضع جَمارك على أقوالي أيضاً، وليس على أفعالي فقط... اسحبي يدك من هناك.

يقول ذلك، لكنه في الوقت نفسه لا يبعد تلك اليد عن فمه بل يقبلها.

لكم كان كل منهما يحب الآخر!

لم يشأ عزيز باشا أن أجلس في العربة قبالتهما، فأجلسني بجانبه، وأجلس ابنته بجانبه الآخر.

كان عزيز باشا بديناً لذلك لم نكن مرتاحين في جلستنا، فاقترحت مرة أخرى أن أجلس قبالتهما، فقال حانقاً :

- عفواً، كيف يجلس معلم قبالة تلميذته ؟ إذا أصررت فسأجلسها هي هناك...

t.me/yasmeenbook

كان عدنان، المولع بقيادة العربة مثل ولعه بالتصوير، جالساً بجانب الحوذي، فرقع السوط الذي بيده ببهجة، فراح الحصان الجامح يجري بنا بين الأشجار. كان الأمر جيداً، لكن الطريق ضاق وساء بعد فترة، ولما صار الاهتزاز مزعجاً، قال الباشا :

- هل ننزل يا أولاد ؟ سنصل إلى المكان الذي نقصده في وقت أسرع إذا ذهبنا إليه مقاطعة.

نزلنا، ودلفنا إلى ممر جانبي ضيق ومظلل. ثم عندما اختفى ذاك أيضاً، صرنا نمشي بين الأشجار على غير هدى. التفت إلي عدنان الذي لم ينزل سوط الحوذي من يده، وكان يضرب به على بعض الدغلات بين الفينة والفينة مطيّراً العصافير، وقال :

- لنأت إلى هنا يوماً ومعنا بندقية صيد سيدي المعلم !

فقالت سنيحة :

- ما زلت صغيراً على استعمال بندقية الصيد. إذا أردت أن تأتي بدبق فربما...

غمزني الباشا بعينه ضاحكاً، وقال :

- كما ترى يا سيد شرف، هذه الفتاة بحاجة ماسة إلى أن تتحكم بشخص ما. كان الله في عون ذلك ((الشخص" كائناً من كان...

طأطأت سنيحة رأسها ولاذت بالصمت خوفاً من أن يفتعل الباشا مشكلة مرة أخرى. بينما تابع عزيز باشا قائلاً :

- لا بأس، يمكنك أن تتدخلي في شؤون عدنان ما دمت تستمتعين بذلك، ولكن في شؤونه هو فقط... فهمت ما أقصده أليس كذلك ؟

جلس الباشا وارتاح عدة مرات بذريعة الطلب من أولاده البحث عن بعض النباتات والأزهار، ثم أضعنا الطريق بين الأشجار التي كانت تتكاثف وتصير أحراشاً شيئاً فشيئاً، لذلك وصلنا في زمن استغرق أكثر من ساعة، إلى رأس النبع الذي قال إننا سنصل إليه قبل العربة.

t.me/yasmeenbook

كانت هناك طاحونة كبيرة تقع على الطرف المقابل من غدير ماء. وقد بني فوق الماء جسر صغير مكون من بضعة ألواح خشبية، أراد عدنان أن يتجول في الطاحونة، فقال الباشا :

- أشك في أن تحملني هذه القطع الخشبية.... اذهبوا أنتم، وسأنتظركم هنا وأرتاح.

مشيت مع عدنان، فناداني الباشا من خلفي قائلاً :

- إنها تحمل شهادة، لكنها هي أيضاً طفلة يا سيد شرف، لماذا لا تأخذونها معكم؟ سوف تتزعج !...

- خشيت أنها لا ترغب، فلم أجرؤ يا سيدي.

ربما كانت سنيحة لا ترغب فعلاً، إذ تذرعت بملاءتها، وقالت لي :

- ليس لأنني لا أرغب يا سيدي، ولكن أبي الباشا استعجلني وأربكني، بحيث لم أفكر بتغيير ملاءتي قبل أن نخرج إلى الطريق، كنت عائدة من زيارة في المدينة عندما حضرت. لو كنت ارتديت رداء النزهة...

فقال الباشا :

- تخلعينها عنك، ويتم الأمر. فأنت لم تلصقي الملاءة على جسمك بلاصق...

سرت وعدنان نحو الجسر، بينما بقيت سنيحة عند أبيها تخلع ملاءتها؛ ثم لحقت بنا بثوب بيتي حريري ذي أرضية صفراء عليها رسوم أزهار خضراء وحمراء. اتخذت فجأة هيئة طفلة بثوبها القصير ذي الأكمام القصيرة، بحيث أنني لم أتردد في أن أمدّ لها يدي كما مددتها لعدنان، وأساعدها على عبور منطقة متداعية في الجسر. وما كنت لأجرؤ على ذلك لو لم تخلع ملاءتها.

بعد أن تجولنا في الطاحونة مع قروي عجوز، عبرنا باباً صغيراً مطأطئي الرؤوس، وتتبعنا ساقية عريضة أرضيتها مرصوفة بالحجارة؛ تحت شجيرات قزمة اصطفت على الجانبين واتخذت شكل نفق بتداخل

t.me/yasmeenbook

أوراقها ببعض، وتوقفنا عند ثقب سماه الطحان (السرّة). كانت المياه صافية كالمرآة حتى وصولها إلى هنا، وكان جريانها يبدو من تحرك الأوراق الساقطة عليها. ثم تزبد فجأة هنا عند فم السرّة، وتسقط هادرة فوق مروحة في الأسفل. وقفت سنيحة قبل السرة مستندة بكفيها إلى حاجز الساقية الحجري الصغير المتهدم في بعض أماكنه، تمد يدها بين الفينة والأخرى وتلتقط الأوراق المارة أمامها. أما أنا فكنت واقفاً خلفها أراقب خيالها الذي ينعكس على الماء ويختفي. أضاء ضوء الشمس المتخلل من خلال الشجيرات التي فوق رؤوسنا صفحة المياه لحظة إضاءة التقت معها عيوننا تماماً. انسحبت خطوة إلى الخلف مرتبكاً، أما هي، فبالعكس التفتت إلي وراحت تحادثني. خيل إلي أنها كانت خائفة من أن أظن أنها كانت تسترق النظر إلي في صفحة الماء. ولم نكن قد تحادثنا تقريباً حتى تلك اللحظة. وهكذا بدأت بيننا صداقة. فسألتها بضعة أسئلة لا معنى لها عن مدرستها، وحدثتني عن أبيها :

- يظن أبي الباشا أنني سأضيق بالعيش هنا، مع أنني خلاف ذلك أحب حياة القرية، مثله تماماً.

ثم أضافت وقالت لي شيئاً هيّجني :

- لن يكون لنا من عمل بعد الآن سوى أن يحب أحدنا الآخر.

عندما كنت طفلاً كانت الفتيات قليلات في عائلتي؛ وعندما كبرن وصرن يهربن من الرجال، صرن غريبات عني. كنت أرى دوماً مصادقة فتاة شابة شيئاً فوق العادة، وأظن أن الإنسان يمكنه أن يراهن من بعيد فقط. أما الحديث معهن وجهاً لوجه، فهو حديث انفعالات وارتعاشات وعشق. لكني عندما كنت أتحدث مع سنيحة، وجدتني فوراً تقريباً بعكس ذلك، كأنني معتاد على الحديث. وربما كان لبساطتها غير المصطنعة، ولطبيعتها الوقورة تأثير في هذا.

فيما كنا نتحدث، صعد عدنان على شجرة تبعد عنا قليلاً، وبعد قليل عاد ويداه وجيوبه ملأى بالجوز الطازج. فأنّبته أخته لأن هذا الجوز المحشو في جيوبه سوف يخلف لطخاً وبقعاً. لكنها ودون أن تفكر باللطخ

t.me/yasmeenbook

التي سوف يخلفها على يديها، بدأت تكسر حبات الجوز وتضعها على أوراق الأشجار التي نشرتها فوق الحاجز. وساعدتها أنا في ذلك. وعندما كثرت الحصيلة، أخرجت جريدة "إقدام" من جيبي، وعملت منها قرطاساً ملأناه بالجوز المقشور. رأى القروي العجوز، الذي يقف بجانبنا، الجوز قليلاً، فاعتبر نفسه صاحب بيت، وقال :

- هذا لا يكفي ... فلأجمع شيئاً أيضاً لتأخذوه معكم.

فهمست لي سنيحة قائلة :

- هل ينكسر خاطره إذا أعطيته شيئاً يا ترى ؟

فأجبتها مبتسماً :

- بل نفعل ما هو أحسن.

ومددت يدي بالسكين التي أقشر بها الجوز وقدمتها هدية للقروي العجوز؛ وخشيت في الوقت نفسه أن تعترض سنيحة على ذلك، لأنها تراني رجلاً فقير الحال. لكنها لم تتصرف بهذه الخشونة. من يدري، ربما فكرت بأنها ستعوضني عن خسارتي بهدية أخرى.

عندما رأى عزيز باشا أصابعنا المسودّة، قال :

- ما هذا... هل وضعتم حنّاء على أيديكم ؟

أجفلت فعلاً وقد بدا لي سواد الجوز على أصابعنا دليلاً على خطيئة ارتكبتها مع فتاة شابة.

ما زال هناك وقت على حلول المساء، لكننا خشية من أن يهبط علينا الظلام ونحن داخل هذا الحرش الشبيه بالغابة، خرجنا إلى الطريق فوراً. لكن رغم عجلتنا حدث ما كنا نخشاه. والحمد لله أن الحوذي كان رجلاً عاقلاً، إذ راح يطلق الزمور. وفيما كنا نظن أنفسنا تائهين في أعماق الحرش وجدنا أنفسنا وقد خرجنا إلى جانب العربة تماماً.

استبقاني الباشا على العشاء تلك الليلة. وكانت هذه هي المرة الثالثة منذ أن بدأت بتعليم عدنان. تحادثنا في شرفة المزرعة حتى ساعات متأخرة، وتكلم عزيز باشا عن الطبيب، وكان بين الفينة والأخرى يقول :

t.me/yasmeenbook

- ليتنا كنا أرسلنا إليه أيضاً ليحضر هذه الليلة. سنفعل ذلك في المرة القادمة.

هذه الدعوات سوف تستمر إذن.

فهمت صداقة الباشا والطبيب الحميمة بشكل أفضل تلك الليلة. فهذان الرجلان يتشابهان جداً، فتحت مظاهر السخرية واللامبالاة في تصرفاتهما يكمن وقار غريب، ويحسّ بحزن خفي لم أعرف جيداً مصدره.

رغم أن الباشا يدّعي بين الحين والآخر أنه شديد الجهل، ويباهي بذلك، إلا أنه لم يكن كذلك. وإن تمضيته معظم شبابه ملحقاً في السفارات في أوروبا يظهر أنه ليس رجلاً يستحق أن يُرمى خارجاً. كانت أحاديثنا التي شارك فيها أولاده أيضاً في البداية، كأنها أحاديث طفولية. لكنني فهمت أن سبب هذا أنه كان يراني أنا أيضاً طفلاً، وبالأصح أنه كان يظنني ولداً فقيراً ابن فقير لا يعرف شيئاً من آداب السلوك والحديث. مع أنني كنت في أولى مراحل شبابي شاباً نشيطاً حيوياً بشكل مدهش، أترك لدى من حولي إحساساً بأنني ذكي ومحبوب؛ ثم لم تستطع الإخفاقات المتتالية أن تجعل مني إنساناً صامتاً، مجفلاً، منفراً. وبدلاً من أن أخمد وأسكت نهائياً أمام هذا الرجل الذي يتكلم بإيماءات وحركات تعبيرية كبيرة، وبمزاح مريك محرج، عدت ذلك الشاب القديم، بحرارة وجرأة لا أعرف من أين جاءتني.

حتى صوتي تغير كلياً وصار حلواً لطيفاً. ولاحظت أنه كان يدقق النظر في وجهي أحياناً، عندما كان يرى أجوبتي وكلماتي ملفتة للنظر، كأنه صادف شيئاً غير متوقع. وكان يبدي لي الاحترام، ويطرح معي قضايا فكرية ينبغي ألّا يطرحها رجل في موقعه مع رجل عادي مثلي. بل راح يحاول جاهداً أن يبين لي أنه بعكس ما كان يدعيه تماماً، وأنه ليس رجلاً جاهلاً.

عادت سنيحة التي غابت فترة بعد العشاء لكي تنوّم أخاها، وجلست في الشرفة تحت الضوء على كرسي من الحصير، وعلى ركبتيها مجلة

t.me/yasmeenbook

مصورة. كانت تبدو وكأنها لا علاقة لها البتة بأحاديثنا، لكني كنت أراها تترك المجلة على ركبتيها بين الفينة والفينة وتنظر إليه تارة وإلي تارة أخرى.

بعد يومين إذن سأبدأ الحديث معها أيضاً على انفراد.

أوصلتني عربة المزرعة في وقت متأخر، إلى منتصف الطريق، فقد رغبت في متابعة ما تبقى من المسافة ماشياً. إذ كنت بحاجة ماسة وغريبة إلى الانفراد. وإلى إطالة الطريق، رغم تعبي. حيث شعرت كأن هذا الحوذي الذي أمامي والذي يقود حصانه وهو يصفر صفيراً خافتاً، يمنعني من التفكير كما أريد.

تخللت أحاديثنا مع الباشا، مواضيع هامة تطرح عادة ويستطيع مناقشتها أناس مهمون. لكن ما هو أهم من المواضيع بالنسبة لي، كان تنازل الباشا وطرح هذه المواضيع معي، بل ودفاعه عن نفسه وكأنني قرين وند له. ثم الإطار المحيط بهذه الأحاديث، تلك الفتاة التي تجلس بجانبنا ساكنة صامتة والمجلة على ركبتيها، تنظر إلينا من حين لآخر...

كانت أفكاري وبالأحرى خيالاتي تروح وتجيء بالتناوب بين الأب وابنته أثناء عودتي ماشياً إلى بيتي. مصادقة فتاة شابة دون حب ودون تفكير بزواج ! كان هذا أمراً جديداً جداً، وحظاً سعيداً غير متوقع بالنسبة لي. بعد سيري على قدمي في الطريق التي طالت كثيراً، فكرت بهذين الأمرين بالتناوب فترة لا بأس بها في فراشي أيضاً، ودون أن أشعر استغرقت في نوم هادئ وعميق.

* * * * *

يجب الحذر أحياناً من النوم العميق؛ فأظن أن الكائن المتوحش الذي بداخلنا يصطادنا في تلك الساعات دون إمكانية الدفاع عن أنفسنا، ويحدث في عالمنا تغييرات مخيفة.

t.me/yasmeenbook

عندما استيقظت، كان كل شيء قد امّحى من ذهني، عزيز باشا وأحاديثي معه، ومنظر الليل من حولنا. الخلاصة غاب كل شيء. وبقيت فقط سنيحة الجالسة تحت ضوء المصباح المعلق، بكتابها المنسي على ركبتيها، تنظر إلي نظرة من لن تفارقني مرة أخرى. استويت في فراشي ورحت أفكر بهدوء. فليس عبثاً وصف الشعراء الحب بأنه كالصاعقة. لكن صاعقتي كانت صاعقة غريبة تسللت إلى أحلامي، وتغلغلت بصمت وهدوء ودون علمي في لحمي وعظامي واستقرت بشكل طبيعي كصاحبة منزل هناك... بحيث لم أرتبك ولم أدهش. أتذكر ما قاله لي الطبيب في أول لقاء : " أخشى أنك لا تفكر بأشياء بل تفكر بشيء واحد فقط أثناء مراقبتك الغروب من هذه التلة ! " وحدث ما قاله. فما عاد ينفع أي شيء أفعله. وسوف تبقى هي وحدها كصورة ملتصقة في بؤبؤ عيني بعد الآن، وسوف تنساب الدنيا بأكملها من حولها كعالم لا معنى له من السحب والظلال. ورحت أتجول في الغرفة وأنا أصفر وأغني كما في أول أيام شبابي، وألقي بالمشط والفرشاة اللذين في يدي في الهواء مراراً وألتقطهما، دون أن أستعملهما، وأفكر. كما قلت لا خوف ولا ارتباك... كنت أحدث نفسي قائلاً :

" هناك من يعشقون فتاة الصورة أو اللوحة المعلقة في غرفهم ! " وأنا صرت أشبههم. هذه الفتاة صارت محكومة بالبقاء صورة بلا جسد بالنسبة لي، فأي علاقة يمكن أن تخطر بالبال بين رجل عادي مثلي وبينها ؟ لا بد أن الخدم الذين لا يتمالكون أنفسهم من حب سيداتهم كثيرون. وفيهم من يعاني الآلام، ومن يقع في أزمة نفسية؛ وفيهم البدائي والبسيط الذي لا يعرف وضعه، ويرى هيئته الذليلة في المرايا الفخمة في بيوت الأغنياء ولا يخجل.... الفرق بيني وبينهم هو اعتدادي بنفسي..

الترف الوحيد الذي بقي لي من حالتي التي تزداد سوءاً ويأساً يوماً بعد يوم، هو هذا الاعتداد بالنفس، فهو الذي سيبقيني دائماً منتصباً متيقظاً تجاه كل خطر. أجل، فأي أمل يمكن أن أتخيله تجاه مثل هذه الفتاة بحالتي هذه اليوم، كي أخاف من أن تجرني وتوقعني في الأزمات. هل هذه

t.me/yasmeenbook

الفتاة بالنسبة لي اليوم هي طالبتي ؟ هل أنا معلمها ؟ وعندما تحدث والدها البارحة عن جلوسها في العربة قبالتي قائلاً : " لا يجوز أن يجلس المعلم قبالة طالبته ! " كان يمنحني دعماً معنوياً حسب اعتقاده، لكن لا شك أنه لم يكن هو نفسه مقتنعاً بذلك. وأنا نفسي، هل أنا قليل العقل وصغير النفس بحيث لا أدرك أن ما سأعلمها إياه مقابل بضعة قروش لا يختلف عن تلميع وصبغ حذائها ؟ أو ليست لي أنا أيضاً طموحاتي ؟ بالتأكيد لي؛ وهي طموحات أسماؤها كبيرة لسبب ما، ولكن يجب أن يقال عنها طموحات صغيرة : طموح النجاح، طموح أن أكون رجلاً كبيراً مرموقاً، طموح الأبهة والغنى، طموح النظر بتعال إلى كل شيء... ربما لا يفهم المتعة غني حرب مهووس يقدم لحافاً من الأوراق المالية هدية إلى فنانة أوبرالية، بقدر ما أفهمها أنا بحرقة وارتعاش. هل ماتت هذه الطموحات ؟ لا؛ لكنها وأمام سوء الطالع في هذه الأيام تخدرت وضعفت وانزوت في زاوية من الزوايا بين جوانحي مثل حية بين الثلوج، إنما لم تمت. وهذه الطموحات هي التي ستحميني في الطريق الجديد الذي انفتح أمامي فجأة. لن أظهر أي ضعف أمام هذه الفتاة، ولن أبدي أي تقرب منها. سأبقى بعيداً وغريباً عنها كأنها رسمة لوحة. لكن هذا لن يمنعني من حبها. لا أعرف الشاعر الذي قال : " أنا إن كنت أحبك، فمالك أنت؟" وأغلب الظن أنه شاعر إنكليزي. أنا لن أقول حتى هذا، ولن أشعرها، سوف أكون ذا كبرياء وأحمي ضعفي كشرف لي، بوحشية وحش كاسر. ولن أظهر ضعفي حتى عندما يسلمها أبوها يوماً ما بشعرها ونقابها لأحد آخر. فما الذي كنت أنتظره وآمله، وما الذي فقدته ؟ لكن رغم ذلك سوف تبقى صورتها الملتصقة بعيني التصاقها بزجاج الصورة، أيضاً في مكانها هناك... وسوف تسعدني.

والخلاصة، إنني في هذه الساعة أعترف بأنني أحببت سنيحة حباً ربما أقوى مما هو عليه، ولم أجد في هذا ما يخيف ويقلق. ورحت أرقب بهدوء وسكون لطيفين الأشياء التي غيرت مناظرها فجأة حولي.

* * * * *

t.me/yasmeenbook

بدأت الدروس مع طالبتي الجديدة بعد ثلاثة أيام. رأيتها، أثناء مروري في الحديقة، وهي تلعب بالقفز على الحبل في إحدى الأجمات، مرتدية صدريتها المعلمية السوداء التي جلبتها معها من المعلمة. كان ظهرها باتجاهي. وكانت شريطة حمراء معقودة على طرف شعرها المجدول تتطاير في الهواء كلما نطت وهي تُدوِّر الحبل. كم هو كبير الفرق بين حالتها هذه، وبين حالتها عندما رأيتها لأول مرة بالملاءة ؟ رمت الحبل عندما لمحتني، واتجهت نحوي وهي ترفع خصلة شعر تساقطت على جبينها. وقالت باسمة وهي تلوي رأسها حياء كأنها ضبطت متلبسة بذنب اقترفته :

- لا يستطيع الإنسان أن يتخلى بسهولة عما اعتاده يا سيدي.

فأجبتها بالجدية نفسها :

- يمكنه ذلك مع مرور الزمن يا آنستي.

كنا نمشي نحو البيت، دون أن نقول شيئاً آخر. وعندما طال الصمت، سألتها سؤالاً لا معنى له :

- هل والدك الباشا في المزرعة يا آنستي ؟

أحسست أنها تبسمت :

- كعادته دائماً يا سيدي.

هي أيضاً أحست بحاجتها إلى أن تجد ما تقوله :

- كم كان الخاطر الذي خطر ببال أبي الباشا مناسباً يا سيدي! فسوف أستفيد كثيراً من دروسك...

- أستغفر الله يا آنستي... أنا أيضاً لا أعرف الكثير... قد أساعدك قليلاً....

- بقيت لغتي التركية ضعيفه مع الأسف، إنهم لا يدرّسون التركية في المعلمة.. لكن كم هي ضعيفة لغتي يا سيدي... أبي الباشا يتسلى دائماً بالأخطاء الإملائية في رسائلي التي أكتبها له.. لكم هو معيب أليس كذلك يا سيدي ؟... ثم إنه يصعب علي جداً فهم كتبنا. سأكون شاكرة جداً لك إذا ساعدتني في ذلك...

t.me/yasmeenbook

- ستكون وظيفتي سهلة في هذه الحالة يا آنستي... إذا كان الأمر يتعلق بالإملاء فقط فهذا سهل... فأنا كل ما أعرفه تقريباً هو هذا... ثم ستحتاجين للكلمات العربية والفارسية... يجب أن تركبّي جملاً دون أخطاء...

قلبنا مكتبة عزيز باشا رأساً على عقب ذلك اليوم، وكانت بين آن وآخر تصعد على كرسي، وتتناول كتباً من الرفوف، وتمسح غبار بعضها بصدريتها. فقلت :

- لو تعثرين لي على خرقة، لأقوم أنا بهذا العمل، فقد اعتدت بطبيعة الحال على تنظيف الأضابير القديمة في الديوان.

ردت فقط بقولها :

- أستغفر الله يا سيدي.

لم أصر كثيراً، واستمرت هي في عملها. بينما رحت أتفرج من مكاني على الصورة الجدارية، بالروح الهادئة التي وعدت بها نفسي. إذن فهذا الأمر، سيكون سهلاً لهذه الدرجة.

عثرت طالبتي على كثير من الكتب القديمة والجديدة وأخرجتها. مرّ علينا الباشا فترة، وسحبني إلى زاوية. وقال :

- انتبه، أرجوك يا عزيزي. فهؤلاء الفتيات الصغيرات يكنّ ماكرات جداً. فهناك بعض من مذكرات وصور شبابي وما شابه موزعة هنا وهناك بين الكتب... طبعاً لا حاجة لأن أخبرك عن ماهيتها... أرجوك، احذر أن تقع في يدها...

وضعنا مع سنيحة برنامجاً بسيطاً. كانت قد تيقظت جيداً في المعلمة. وتريد أن تفهم كتبنا وآدابنا. وأنا سوف أدلها على الطريقة، وأشرح لها ما لا تفهمه من اللغات التي لا تعرفها.

لم يكن هناك فرصة أحسن من هذه ليلهو عدنان كما يحلو له؛ إذ لم أعد أستطيع الاهتمام بدروسه ووظائفه كالسابق. فكان ينتهز فرصة انشغالي بأخته ويجلس في إحدى زوايا الغرفة، أو في ناحية من أنحاء الحديقة، وينسينا وجوده، ويصنع سفناً من الخشب أو يلوّن الصور.

t.me/yasmeenbook

عندما بدأنا الدرس، لم تخلع سنيحة صدريتها المدرسية التي كانت ترتديها أثناء نط الحبل. ربما كان ذلك إشارة مشتركة إلى الحياة التي خلفناها وراءنا. كانت هذه الصدرية تجعلها تبدو كطالبة أكثر. وتسهل بذلك وظيفتي. ولكي أؤدي دوري بشكل أكثر طبيعية سوف أغير بيدي وضعية يدها وهي تمسك القلم بشكل سيء أثناء كتابة التركية.

فتحت صفحة ما من كتاب " الربابة المكسورة "•

- ألا تودين القراءة يا آنستي ؟

- طبعاً سوف أفعل ما تأمرني به.

- لا، لا تعتمدي علي أكثر من اللازم... فأنت تعرفين أنني لست معلماً حائزاً شهادة... وأرى أنك أخرجت من المكتبة كمية لا بأس بها من الكتب الجيدة... وأظن أنك ستقلبينها وتقرئينها بنفسك. وعندها أقرأ معك ما تريدينه... وأشرح لك الكلمات التي أعرفها.. أما التي لا أعرفها فنبحث عنها في المعجم... أكرر قولي : لا تتوقعي من معلمك إلماماً عالياً بالآداب...

عندما أعجبها هذا البرنامج تخلينا عن برنامجنا الذي وضعناه سابقاً، ويبدو أنها ستفيدني من وقت لآخر. فمثلاً طلبتْ منذ أول يوم أن تقرأ قصيدة " سها وبروين " التي في بداية الكتاب. لا شك أنها ما كانت لتفعل هذا لو كانت تعرف ما يقوله الشاب والفتاة أحدهما للآخر في القصيدة، لكني كنت أعرف، فقلت لها :

- ليتنا نبدأ بشيء، أصغر وأبسط.

فأجابت مرة أخرى قائلة :

- كما تأمر.

مهما يكن فإن التلمذة منحتها روح طفلة ماكرة. فعندما كررت للمرة الثانية هذه الـ " كما تأمر " كانت تبتسم ابتسامة تعني " ها أنت ترى أن الدرس لا يسير بحرية ".

• – من كتب الشاعر التركي : توفيق فكرت (1867 - 1915) وينتمي إلى جماعة ثروة الفنون.

t.me/yasmeenbook

تركت " سها وبروين " وفتحت هذه المرة صفحة من آخر الكتاب، وبمعاكسة المصادفات، وقعنا هذه المرة أيضاً على شعر غزلي لفكرت الذي قال عنه أستاذنا الأديب جلال ساهر : " نقطة الضعف الوحيدة فيه أنه خاض قليلاً جداً في الغزل "، وعلى مقطوعة غزلية معزوفة وملحنة تشبه عالم ليالي بلدتنا :

اعزفي يا حبيبتي، اعزفي يا جميلتي، اعزفي يا ملاكي اعزفي... "

وفيما كنت أتلو القصيدة محاولاً بصوتي وأعصابي الهادئة تهدئة ما فيها من إثارة، منشغلاً فقط بالكلمات العربية التي تحتويها، حدث أن حضر عزيز باشا إلى المكتبة .

- كيف تسير الدروس ؟

ونظر إلى الكتاب وهو يثبت نظارتيه. وبإحدى انفعالاته العصبية المستيقظة فجأة، قال :

- ماذا تعلم ابنتي أيها السيد المعلم ؟

والأغرب أنه راح يتلو القصيدة عن ظهر غيب :

" باللّه، تلك اليد هي التي اقتلعت روحي من مكانها."

ومن نظرته إلى البعيد البعيد وهو يبتسم متحسراً، أدركت أن ما يروى عن تعلقه بعوالم الخمر لم يكن بدون سبب. ربما كانت هذه الأبيات هي كل ما بقي في ذهنه من الربابة المكسورة، لكن وللمصادفة كانت هي قد وقفت عند هذه الأبيات تماماً.

نهضت من مكاني فزعاً، ومن يدري كيف كانت حالة وجهي ؟ إذ كنت أفتح يديَّ وأبسطهما كمشتبه بأنه يخفي في كفيه ذنباً، وقلت مكأكئاً :

- لم نكن قد بدأنا الدرس بعد يا سيدي الباشا، كنا نقلب الكتاب عشوائياً، وبالمصادفة وقعنا على هذه المقطوعة.

استدار عزيز باشا من اليسار فجأة، وأمسك بذراعيّ، ونظر داخل عيني نظرة بحيث لا أستطيع إبعادهما عنها، وقال :

t.me/yasmeenbook

- يعني، هل يمكن أن تفهمني ما الضير في هذا ؟ يعني أنقذناها من أيدي الراهبات، وسنسلمها الآن إلى مشايخ المدارس ؟ وماذا يضير إذا بحثتم قليلاً في النساء، وفي الألحان وما شابه...

يبدو أن الباشا كان سيلهو بي كعادته مع ابنته، وليس بمقدوري مجاراته. لملمت نفسي فوراً، وقلت بابتسامة مريرة :

- صحيح يا سيدي الباشا، ولكن ما الفائدة ؟ لقد صارت عادة أن تكون هناك خشية من تعليم هذه الأشياء حتى للطلبة الذكور.

قال متنهداً :

- كم من الأمور سيخشونها بعد في تلك المدارس ؟ قال هذا وغادر.

* * * * *

كانت سنيحة تحب قراءة الكتب. وأدركت أنها كانت تدخل المكتبة بكثرة وتقرأ الأشعار والروايات. كانت بشكل ما هي التي تنفذ برنامج دروسنا، ولا تدع لي شيئاً كثيراً. واقتصرت وظيفتي على محاولة أن أبقى مجرد معلم قواعد جافة ومملة، لا تتعدى الكلمات والتراكيب.

علي أن أكون هنا أيضاً كما أكون عندما أعلم عدنان دروس الدين والحساب. قد لا يكون شك عزيز باشا بأنني أشتهي ابنته خطيراً للغاية، ولن يجعلني ذلك في النهاية مضحكاً. لكن ظن سنيحة أنني، بثيابي الرثة اللامعة من كثرة الكي، أحاول أن أغازلها سيكون مخيفاً، ويميتني حياء.

وفي أحد الدروس أهداني الباشا ربطة عنق أوروبية، وقال :

- سيد شرف، ظهرت هذه بين ربطات العنق التي جلبها من أوروبا وأهدانيها صديق قديم، إنها مبهرجة جداً، شيء يليق بالشبان... إنني أعطيك إياها.

t.me/yasmeenbook

لم تكن هذه في الحقيقة حركة ظريفة تصدر عن الباشا، فمعلوم بماذا تفسر هدية الغني للفقير. ولكن لا يحق لي الاستياء أيضا. لأنه من المعلوم مَنْ أكون في نظر الباشا. أخذت ربطة العنق بدهشة وانبهار بجمالها، وبعد أن عاينتها على الضوء، شكرته شكراً زائداً عن الحد على هذه الهدية، ووضعتها في جيبي الداخلي، وقلت بصراحة لم أستطع إخفاءها :

- كيف أفرط بها وأستعملها يا باشا ؟ سأحتفظ بها وأخبئها كذكرى لا تنسى.

لم يكترث عزيز باشا وقال :

- استعملها، استعملها... ماذا سيحدث... إنك شاب...

كان هذا زائداً عن الحد، فقلت بلهجة يجب أن يفهمها هو، وتفهمها سنيحة، ولكن بتهذيب شديد :

- أوليست مبهرجة جداً وراقية بالنسبة لي يا باشا ؟ إني أفكر جدياً أحياناً بأن أرمي هذه الربطة التي على قبة قميصي، وأن أرتدي فوق ثيابي صدرية مزرورة بزر عند الكتف، حسب الزي الشائع هنا، وأن أزاول عملي في غرفة المحاسبة به، وأن أتجول به بين زملائي الذين تعرفهم، وأمام المدير...

ضحك الباشا مدهوشاً، وصمت لأنه كان ذكياً لدرجة يعرف معها أنه ليس لديه أي جواب.

إثر هذا رويت قصة تضحك الأب والإبنة أكثر : وشرحت كيف أن شاباً من حيي، زين يوم عرسه، سترته المرقعة بأجمل الأزهار التي قطفها وجمعها من الحدائق.

لو كان الباشا أكثر ذكاءً لفهم من أحاسيسي التي لم أستطع إخفاءها تماماً، ومن إيماءاتي وحركاتي التعبيرية، كم كنت مضحكاً ومتسولاً أكثر من ذلك الفقير ذي الأزهار. لكني أظن أنه لم يفهم.

t.me/yasmeenbook

أما سنيحة التي كانت صامتة فأغلب الظن أنها استشفت شيئاً من موقفي الذي اتخذته تجاهها بأقسى أسلوب سياسي عبرت عنه كلماتي وانفعالاتي أوضح تعبير، ولم يكن ما أريده غير هذا. وبعد أن بينت أنني لا أختلف عن الحوذي الذي في الأسفل، لم تعد هناك مسألة، ويمكنني العمل بارتياح الآن.

الخلاصة، لقد صارت عزة نفسي، وكما يبدو من جادثة ربطة العنق الصغيرة هذه، حالة مرضية مستفحلة. لو كان بالإمكان لجئت إلى الدروس وقد أطلقت لحيتي كالدراويش وارتديت خرقة مهترئة.

صرت أفهم الآن بعض زملاء المعلمة الفقراء جداً، الذين كانوا يدركون أنهم لا يستطيعون مجاراة أبناء الأغنياء، فيستمتعون بالإمعان في وساخة وهلهلة هندامهم. وهكذا كان إذن ما استطعت أن أفعله تجاه سنيحة.

*****

رغم طفولتها المصطنعة التي أضفتها عليها صدريتها المعلمية السوداء التي لم تخلعها، بدت سنيحة في هذه الحياة أكثر رزانة وجدية مما كانت تبدو عليه وهي فتاة شابة ترتدي الملاءة. وكان تصرفها ومظهرها الآمر تجاه شقيقها وأبيها، يفوق الحد بحيث يعطي الحق لتذمر عزيز باشا. لكنها كما قلت كانت طفلة. ولم تكن تستطيع إدارة الأمور جيداً. لأنها ليست ذات سياسة مدروسة ومحسوبة مثلي.

كثيراً ما كنت أستيقظ من نومي في الليلة التي سأذهب في صباحها إلى الدرس. فأرى في الظلمة بوضوح براق لا يمكن أن يكون في أي ضوء. صورتها، بشعرها المفروق من المنتصف وبعينيها العسليتين البراقتين، وبأدق ملامح وجهها. ومن يدري كم من الزمن كنت أقضي وأنا أرنو إليها، ثم أعود للنوم ثانية، بحيث كنت في اليوم التالي أرجع من منتصف الطريق. وكان هذا لكي أخدع نفسي أولاً، ولكي أقول لها : " هذا معيب

t.me/yasmeenbook

بالنسبة لمعلم، ولكني نسيت يومي ! " لكنها لم تكن تتحرج من القول إنها انتظرتني.

كنت أبذل ما بوسعي لكيلا أخرج عن كوني معلم قواعد جافة، بينما كانت تختار مقاطع صعبة الفهم فعلاً من الروايات والأشعار، وبعد أن تجعلني أشرح لها المعاني، تدخلني في الأدب، وتطلب مني في بعض الليالي، أن أطلب منها أمثلة تشبه ما قلته، فيما والدها والطبيب يتحادثان.

ربما كان هذا رد طبيعتها المتحكمة على عنادي. فهي حتماً لن تتهيب أن تفعل بالمعلم الشهري ما تفعله بأبيها. ولكن قد يكون هذا حب ظهور أيضاً... إذ تريد أن تبين لي أنها تعرف أشياء كثيرة. فقد كنت أشعر باحتياج الفتيات في هذه السن إلى التحدث إلى مربياتهن بأحاديث شخصية. وما الفرق بيني وبين المربية بالنسبة لها ؟ وربما لم يكن أي واحد من هذا. وكان مجرد رغبة التحدث قليلاً بحس أنثى طبيعية، بأحاديث لطيفة وشخصية مع رجل يقظ ذكي حسن الوجه نوعاً ما، مهما كان وضعه. لكني لم أكن أستطيع التفكير بهذا ولم أتقبله بشكل من الأشكال.

بدأت وبتوصية من والدها أيضاً بقراءة " جزمي " لنامق كمال، ولفها الفضول في ذلك. وكان موضوعاً جيداً لدرسنا لأنه يتضمن كلمات وتراكيب كثيرة تحتاج إلى شرح وإيضاح. وعندما كنت أشرح القطعة، التي تبين أن بريهان كشفت النقاب الرقيق عن وجهها " الوضاء كلوحة فضية سقط عليها ضوء القمر " - أمام جزمي الذي يرتاب بأنها هي التي ارتكبت حادث الاغتيال السياسي – وقالت : " انظر، هل ترى في وجهي وجه قاتلة ؟" وأبرزت خديها المبللين بالدموع المنهمرة. كانت سنيحة تنفعل وتتأثر بينما كنت على عكسها أتشبث بقواعد جمع التكسير وجمع المذكر السالم، في تراكيب المضاف والصفة، بوجه جامد خال من المشاعر. وكانت قراءتي للشعر أحياناً غريبة جداً. فإذا اضطررت إلى إعطاء مثال من عندي كنت أختار منظومات مدرسية بسيطة مضحكة:

" لا تخجل الناس، فلا يخجلك الناس،

لا تكن محتالاً، فلا يحتال عليك الناس "

t.me/yasmeenbook

أما عندما يقتضي الأمر أن أقرأ شعراً جميلاً، فكنت أقرؤه بصوت جاف لا معنى له كقراءة " لا تخجل الناس" وكم كنت أخشى أن تتساءل سنيحة بينها وبين نفسها عن سبب تغيير صوتي الذي أتحدث به إلى أبيها وإلى الطبيب، إلى هذا الصوت الجامد المتزمت في الدروس ؟...

خلاصة القول، إنني كنت صادقاً ملتزماً ببرنامج تجاه حبيبتي الصورة الصعبة المنال المعلقة على الجدار. لكن الصورة كانت كثيرة الحركة لا تهدأ. وبدأت تفسد الأمور ولو بدون قصد. فالصورة يجب ألّا تخرج أبداً عن صمتها وسكونها الأبدي داخل إطارها، وألّا تغيّر خطاً واحداً من خطوطها. أما تلك فكانت تخرج عن إطارها، فتبتعد تارة وتقترب تارة، لدرجة تشعرني بأنفاسها على وجهي وشفتيّ.

حاجباها الخطان المستقيمان المقطبان دائماً، يعلوان، ويهبطان، ويقصران، ويمتدان نحو الصدغين حسب الكلام الذي تتكلمه، وعيناها تتسعان تارة بألوان وألوان تمر فيهما، وتغضان تارة حتى تصبحا مجرد وميض صغير. ووجهها تظهر عليه الخطوط المتبدلة من ثانية إلى ثانية على جانبي أنفها، ويداها اللتان لا تستقران، تحك إحداهما جلد أحد صدغيها، وتبرز عروق الدم الرقيقة، أو تعبث ببثرة قرب شفتها.

كنت عندما أفكر بها في الطرقات أو في بيتي، أقول لنفسي : "حسناً، ولكن هذه المنغصات لم تكن في حسبانك ! ".

مع ذلك كانت لي أنا أيضاً بعض تصرفاتي المزعجة. فكما كنت أعود من منتصف الطريق أثناء ذهابي إلى الدرس. كذلك كنت أثناء الدرس أقف فجأة عند المقطع الأكثر أهمية بالنسبة لها، وأقول : " أنت كبيرة يا آنسة سنيحة، تستطيعين أن تدرسي هذه القطعة بنفسك، علينا ألّا ننسى عدنان. فالمسكين معرض لخطر الرسوب ! " وألتفت إلى الصبي، وأطلب منه رفع الصور التي نشرها فوق دفتره وكتابه منذ اللحظة التي صار فيها خالياً، وأبدأ الدرس :

- اشرح يا عدنان : أي ركن من أركان الإسلام هو الحج ؟ بأي زي يتم الصعود إلى عرفات ؟

t.me/yasmeenbook

لم تبق لدي أي شكوى، وصار كل شيء حولي يبدو واضحاً كالشمس. حتى الدائرة لم تعد تزعجني. ومن يدري أي تغييرات طرأت علي، بحيث صرت محبوباً لدى جميع من حولي.

تطورت وتقدمت علاقتي بالطبيب كثيراً. إذ كنت أقضي الوقت في بيته، عندما لا أكون في مكان عملي أو في المزرعة. كما كنت أبقى وإياه على العشاء في بيت عزيز باشا ليلتين في الأسبوع على الأقل، وكنا نطيل السهر أحياناً. ويكون الفجر قد بدأ يبزغ عندما كنا نوقظ الحوذي الغافي داخل العربة.

كنت حريصاً أشد الحرص على إخفاء لعبتي عن الطبيب، فلم ألفظ اسم سنيحة مطلقاً على لساني. حتى أنني تعمدت مرة التظاهر بنسيان اسمها وذكرت اسماً آخر ثم أسرعت وصححته فوراً، ولا أدري لماذا لم يخطر ببالي أن احتياطي الزائد هذا سوف يثير فيه الشك تماماً.

كنت في حديقته يوماً، وكان عائداً من بورصه، فقال :

- شرف، أغلب الظن أنني سأبشرك بشرى عما قريب، بشرى سوف تفرحك، لكنها سوف تفرحني من ناحية، وتزعجني من ناحية أخرى... لن أستطيع أن أقول لك شيئاً الآن، لأنه ليس هناك شيء مؤكد بعد.

- لماذا توقعني في حيرة منذ الآن إذن ؟

- لي صديق حميم من كبار الاتحاديين. كنا في الجيش سوية. كان عقيداً ركناً هاماً. ترك الجيش بعد إعلان الدستور، واشتغل بالسياسة، صادفته في بورصه، حدثته عنك وقلت : " إنه شاب طيب جداً وقدير جداً ينهك نفسه في وظيفة مالية صغيرة". فاهتم بالأمر جدياً وقال : "سأعمل على نقله فوراً، إن لم يكن إلى استانبول فإلى ولاية كبيرة مثل إزمير، ثم سأعمل ما بوسعي لكي يعينوه في مركز أساسي كمفتش مالية، أو ما إلى ذلك." ربما لم أكن محقاً في أن أخبرك هذه الأمور الآن. فلا تغرق بالأمل كثيراً. لكنك سوف تنتهي من تأمل مرمره عند الأمسيات من جانب البئر الكلسية فوق التلة المعهودة.

t.me/yasmeenbook

كان الطبيب يعرف أنني ما عدت أتأمل مرمره عند الأمسيات، ويعرف من اراقب وإياه، ولم افهم فوراً قصده من هذا الكلام في هذه الحالة ؟ وكان علي أن أشك على الأقل. لكن دهشتي كانت كبيرة لدرجة أنني لم أستطع التحكم بنفسي. ومن يدري كيف صار شكل وجهي، إذ قال :

- ما هذا ؟ ألم تستقبل هذه الحركة بارتياح ؟

كان في وضع من يتأثر لي ويضحك مني.

ثبت إلى رشدي فوراً، وأجبته بابتسامة كاذبة :

- من حيرتي، فربما قد لا يتحقق... ثم ألم تود أنت نفسك أن تخفي الخبر عني، من أجل هذا الاحتمال ؟

كان علي أن أقنع الطبيب مهما كان الثمن.

- لم أخف عنك مقدار هوسي بالمنصب والرقي والثراء، فكر مرة... أولاً استانبول أو ولاية أخرى كبيرة غيرها... ثم مفتش مالية... إنه أوسع طريق يوصلني إلى آمالي... كيف لا أفرح ؟

وأتبعت ذلك بجملة من الانفعالات !...

اكتشفت فيما بعد أنني غاليت في تمثيل دور الفرح الكاذب هذا. إذ كان الطبيب يعرف جيداً أنني حتى لو فرحت فلست ذلك الرجل الذي يعبر عن فرحه وسروره بهذا الشكل الفاضح .

وضع يديه الاثنتين فجأة على كتفي، ونظر في عيني نظرة يستحيل أن أهرب منها وقال :

- يجب أن تغادر هذا المكان يا شرف، فجو هذا المكان لن يناسبك يا ولدي... أقول لك هذا كطبيب وأب...

علمت حينها أنني وقعت في فخ. بل أحسست حتى بنار تمرد تشتعل في داخلي. لكن هذا الأمر لصالحي في النهاية.

ولأن الأمر كله كان مجرد وهم تركنا الموضوع في مكانه. وصارت إدارة الوضع أصعب قليلاً بالنسبة لي في الليالي التي نجتمع فيها سوية في

t.me/yasmeenbook

مـزرعة نارلـي، إذ لم أعـد أسـتطيع أن أبـدي رأيـي بوضـوح وأسـتعرض معلوماتي كالسابق عندما كان النقاش يحتدم بين الكبار في الشرفة. لكن هذا في النتيجة كان أفضل.

هل كانت بشرى الطبيب مجرد كذبة ملفقة لمعرفة نياتي يا ترى ؟ خطر ببالي هذا كثيراً في البداية، لكني مقتنع أنه ليس الرجل الذي يفعل هذا. وصارت صداقتنا بعد ذلك اليوم صداقة من نوع آخر، لا أعرف كيف أعبر عنها، فقد اتخذت شكل سر كامن بيننا ولم يعد بالإمكان البحث في هذا الموضوع. لكن كلاً منا كان يعرف ما يدور في خلد الآخر. كنت عندما أقترب منه وأحدثه حديثاً عادياً غير ذي أهمية، أشعر براحة كأنني أسند رأسي إلى صدره، وأسلمه قلبي عارياً. ما هو سبب لهفتي الدائمة عليه يا ترى ؟

* * * * *

لمحت عزيز باشا أمام باب المزرعة في أحد أيام الدرس. والعربة تنتظره إلى الأمام قليلاً على الطريق. كانت هيئة الباشا مختلفة جداً بحيث ظننته أول الأمر ضيفاً. إذ كان يرتدي بنطالاً قصيراً، ويعتمر قبعة روسية بيضاء.

كان يشير إلي ويلوح بيديه كي أسرع، ثم قال :

- لم تأخرت يا ولد ؟... مضت نصف ساعة وأنا أنتظرك.

نظرت إلى ساعتي وقلت :

- أظن أن الوقت صحيح يا سيدي الباشا.

- أجل، لكني توقعت أن تأتي أبكر، والآن هيا بنا...

سحبني من ذراعي وقذف بي إلى العربة، كأننا يجب أن نصل بسرعة إلى مكان ما، مع أن مقدمة العربة كانت متجهة باتجاه الريف.

لم يكن لدي عمل فرحت أقلب الحاجيات والأغراض، فوجدت هذه القبعة وهذا البنطال، فقد كانت لي مهام في باطوم في وقت ما. وخطرت ببالي حفلات الصيد هناك، فانتابتني رغبة جامحة. أي أننا ذاهبان إلى الصيد الآن...

t.me/yasmeenbook

كانت هناك بارودتا صيد وبعض الأشياء الصغيرة الأخرى في مقدمة العربة.

- حسناً، ولكن ماذا عن الدروس يا سيدي الباشا ؟

- ليست هناك دروس بطبيعة الحال، فلقد أرسلت الأولاد إلى استانبول هذا الصباح على متن الباخرة نيلوفر.

جفلت جفلة خفيفة :.

- حدث هذا بشكل مفاجئ جداً يا سيدي الباشا.

- أجل فجأة... لم نكن قد اتخذنا قرارنا بعد عندما ظهرت نيلوفر في عرض البحر... يا سيدي سيقام عرس لأحد الأقارب... لقد أرسلوا لنا بطاقات دعوة مطرزة بنقوش ذهبية، فقلت : " هيا أسرعي بالذهاب يا أميرة سأكون مسروراً ". وهل هناك شك في أنها هي التي ستكون مسرورة ؟ مهما يكن فإن البنت تتضايق هنا... سنرى كيف سنخرج من هذه الحالة ؟

مررنا بأماكن كثيرة لا أعرفها، أو أعرفها ولم أنتبه لها. نزلنا من العربة على الطريق... رمينا عدة رميات على بعض الدغلات التي طلبنا من الحوذي أن يرميها بالحجارة أولاً. ثم سرنا بجانب الغدير نجتاز المداخل والمخارج بين الدغلات والنباتات التي تصل إلى حد ركبتي. وإذ بنا نجد أنفسنا أيضاً بجانب طاحونة الماء تلك.

كان الصيد قد انتهى، فبعد أن غاصت إحدى قدميه في مستنقع الوحل وأخرجها، لم يعد الباشا يريد إلا أن يبسط له الطاحوني حصيرة يرتاح عليها. بدا مكتئباً، وراح يتفوه بأقوال عن الحكومة وكأنها هي السبب، وتمادى في كلامه كثيراً، بحيث أدرك هو أيضاً أنه غير محق. وكمن يتفرج على البلد كله سرح ببصره في البعيد من خلال كتل الشجيرات التي تحيط بنا كالجدار، وقال :

- هراء، هراء، فلا شك أبداً أن هذه الأماكن وهؤلاء الناس لم يكونوا شيئاً آخر غير هذا منذ زمن عثمان ومنذ زمن نوح، وأنا رحت

t.me/yasmeenbook

أبحث عن حل لهذا الوضع الصعب الذي لا بداية ولا نهاية له، عند مشعوذ جلس في الباب العالي على منضدة وحوله أربعة تافهون يسند إليهم المهام، وأنا أنتظر الشفاء من هؤلاء... هكذا طبعاً؛ وإلا فما معنى شكاواي ؟

فعلاً كان هذا المساء مساء لا بداية له ولا نهاية كما وصف الباشا الدنيا... ففوق رؤوسنا سماء تحولت تدريجياً إلى صفراء عكرة... وحولنا أشجار صفراء وسخة...

تظاهرت بالتجول ويداي في جيبي وابتعدت عن الباشا، وبطبيعة الحال هو لم يكن منتبهاً لهذا. أدرك أنه لن يستطيع الثأر لخيبته من الحكومة، فبدأ يشتم شيخوخته وتعبه. وبينما لم يكن يعترف بشيخوخته مطلقاً، وينتقد ابنته بغيظ مضحك عندما توصيه بعض الوصايا كأن لا يجهد نفسه، وأن لا يأكل كثيراً، صار الآن يتمتم لنفسه بجد حيث كنا متمددين :

- الشيخوخة مذلة !... الشيخوخة مذلة !...

مشيت عبر الطاحونة وذهبت إلى حيث الفتحة التي تدعى " السرّة " وعرفت المكان الذي أسندت سنيحة يديها على حافته وراحت تجمع الأوراق التي يجلبها الماء. وقفت حيث كنت أقف ذلك اليوم ولم أجرؤ على الاقتراب وكأنها ما زالت تقف هناك. وابتسمت وأنا أتذكر التقاء نظراتنا فيما كنا نسترق النظر أحدنا للآخر على صفحة الماء. ثم رميت المسكنة عن كاهلي دفعة واحدة بانتفاضة قوية، فتغيرت سحنتي، وتغيرت مشيتي، ورحت أصفر وأمشي عائداً بخطوات متلائمة مع وقع الصفير مثل تلاؤم وقع خطوات خيول الفرسان مع الموسيقى في العرض العسكري. وفيما كنت أحني رأسي لكي أمرّ من باب الطاحونة الخلفي، سمعت صوت طلقة من بين الدغلات المقابلة للغدير. كان هذا حوذيّنا. إذ كان قد قال وهو يتودد إلي :

- فلأحاول صيد بضع بطات فيما أنتم ترتاحون، لعلنا لا نعود خالي الوفاض.

t.me/yasmeenbook

لم أكن إنسانا جباناً، لكني أجفل إجفالاً غريباً من أصوات طلقات البنادق التي تطلق فجأة. لا بد أنها مسألة ضعف أعصاب. كنت في صغري أجفل من فرقعات الألعاب النارية في ليالي الاحتفالات، وأضحك من حولي بارتعاشي الذي يستمر بضع دقائق بلا انقطاع. وعندما صرت جندياً حاولت التخلص من طبعي خوفاً من أن يحدث لي هذا بلا داع، لكني وفقت في ذلك قليلاً فقط. وبتأثير ذلك جعلت طلقة الحوذي رأسي يضرب بحجرة باب الطاحونة. وشعرت فجأة بألم وبدوار خفيف. بعدها لمعت في مخيلتي فكرة غريبة : وهي أن البندقية لم تكن محشوة بخردق، بل كانت ملقمة برصاصة، وأن هذه الرصاصة أصابتني مصادفة. كان تخيل الفكرة تاماً بحيث أنني تحسست رأسي وعينيّ بيدي، ثم بحثت عن بقع الدم في أصابعي، والأغرب أنني كنت أنتظر أن أحس الآن بمتعة الإصابة والموت هنا الآن أسفل هذا الباب.

قلت لعزيز باشا الذي لم ينهض من مكانه بعد :

- يبدو أنك تفكر بالأولاد يا سيدي الباشا. (لم أجرؤ على أن أقول الآنسة سنيحة، فقلت الأولاد.)

اتخذ هيئة قاسية، وأنبني بوجه عابس قائلاً :

- إن كنت أفكر، نعم أفكر، وماذا سيحدث عجباً ؟!

بدا وكأن صوتي وحركاتي أمدته فجأة بالحيوية، بل وبشيء من البهجة. فقد نهض من مكانه بصعوبة، وأمسك بيدي التي مددتها له في هذه الأثناء، ولم يتركها ثانية، وتابع قائلاً :

- إني لم أقرع طبلاً. قلت الشيخوخة... وأي مذلة سوف تجرها على الإنسان بعد!...

وراح صوته يصطبغ بالحزن رويداً رويدا، ويكتسي نبرة الإفضاء بشجونه :

- الصبي لا يشغل بالي كثيراً... فذاك، شيء يشبه الحشرة لا خوف منه أو عليه... يمكنه أن يكون أينما كان... يكفيني أن أعرف أنه حي...

t.me/yasmeenbook

لكن الفتاة مختلفة ! إني أعرف أنهم لن يتركوا هذه الصغيرة لي... ولكن ليتني أستطيع أن أستبقيها عندي سنة أو سنتين على الأقل... " أحب القرية، أحب أبي ! " هذه خيالات شاعرية... أنا أعرف ماذا تحب أولئك وماذا لا يحبون... عندما قلت " هيا اذهبي إلى استانبول ! " فرحت الصغيرة فرحاً لا يوصف، وإن كانت لم تظهره... يعني كلامي كان جسماً لنبضها... أرجو الله ألا يحدث أي سوء من جرائه...

فقلت بطمأنينة عميقة :

- هل يمكن تصور مثل هذا من الآنسة سنيحة يا سيدي ؟

- يمكن... يمكن... كل شيء متوقع منهن... لا يعرف، ربما كان لها في استانبول من تبادله الحب... سنرى، لا بد أن تفوح رائحتها...

قلت مبتسماً :

- أنت إنسان ذو فكر تقدمي يا سيدي الباشا... حتى لو كان هناك من تبادله الحب، فلا بد أن يكون إنساناً نظيفاً رفيع المستوى تعجب به أنت أيضاً ويليق بعائلتكم...

أطلق الباشا قهقهة مريرة وقال :

- جيد أن يكون نظيفاً رفيع المستوى وما شابه.... لكن المسألة الهامة أن يكون لائقاً بعائلتنا...

جاء الحوذي ببطتين اصطادهما، وهو يظن أن الباشا سيُسرُّ لذلك. لكن الباشا غضب واحتد لهذا أيضاً وقال :

- ويحك يا دب ! لا بد أنك اشتريت هاتين بالمال لأنني لم أصطد شيئاً... يريد أن يصغرني بحسب تفكيره... صارت الدنيا من أولها لآخرها جرثومة يا بني، جرثومة... حتى أنت، نعرف أنك شاب جيد... ولكن إذا دققنا بإمعان...

أدركت فوراً ما وراء هذه الكلمات، فقاطعته بشدة، وبمرارة أكثر وضوحاً :

t.me/yasmeenbook

- أنا يا سيدي الباشا ؟ ... قد يخطئ الآخرون... أما أنا فلا أتصور ذلك عن نفسي... فبينما يعاني الناس من أرقى الطبقات صعوبة في لمّ شتات أنفسهم، كيف تريد مني أنا ابن الطبقة الدنيا الفقير المحروم ألّا أكون جرثومة الجرثومة ؟...

فقال الباشا :

- كلامك هذا ليس كلاماً يرمى إلى الخارج، يجب ألّا يفهم خطأ... يعني لن أصادق على ما قلته عن نفسك... كلامك جميل في جوهره، وجميل أن تتكلم هكذا...

صمت عزيز باشا طوال الطريق ولم يقل شيئاً آخر.

وفي اليوم التالي علمنا بسفره إلى بورصه، فراح الطبيب يقول :

- ذاك له نوبات جموح بين الفينة والأخرى، طالما رأى الميدان خالياً، فسيفلت بضعة أيام... وإذا قلت سيفلت فلا أعني أنه سيلهث وراء النساء... إنما سيلعب القمار بجنون، وسيتوغل فيه أكثر وأكثر...

* * * * *

هناك فجوات في الجدران المتهدمة، تعاودها الطيور: فبعد أن تطير هنا وهناك طيلة النهار، تعود ليلاً لتدس رؤوسها في هذه الفجوات. لا أعتقد بوجود تفكير لدى الطيور، لكني أتصور السكينة والراحة الممتعة في الرأس المدسوس في هذه الفجوة.

كان الطبيب لي في تلك الأيام كأحد هذه الفجوات، إذ كنت أذهب إلى بيته كل مساء تقريباً. كانت تصرفاتي وكلماتي طبيعية جداً. بل ويمكن أن يقال أن سعادتي كانت أكثر بكثير مما كانت عليه دائماً، فقد كنت أحدثه من هنا وهناك، وأستمع إليه بانتباه فيما هو يقرأ بعض المقاطع التي يحبها من كتبه، ومن بينها بعض الشعر المثنوي.

t.me/yasmeenbook

بما أن لغتي الفارسية كانت بالقدر الذي تعلمته في المدارس، لذلك لم أكن أفهم هذا الشعر، بينما كان هو يترجمه بيتاً بيتاً.

وبانتباه خاص لا تخالطه أي أفكار وهموم، كنت أتابع شروحه كتلميذ كلمة كلمة، وأفهمها بشكل واضح وجلي جداً دون أن يشغل تفكيري أي شيء آخر.

مع ذلك كانت تحدث هذه الحادثة الغريبة، وهي أنه لم يكن يبقى من هذه الأشياء في النهاية سوى الراحة اللاشعورية للعصفور الذي دس رأسه في فجوة الجدار الخرب. وكنت قد سمعت شيئاً من هذا القبيل من صديق مقرب لي يتابع دراسة الحقوق. كان يعاني من هموم وأزمات مختلفة. ولم يكن يحجم عن الإفضاء إلي بهذه الأمور أحياناً، فيقول :

" لدي أم، امرأة مسكينة فهمها بسيط. مع أنني عندما أضع رأسي على صدرها أحياناً أحس أنني أكلمها، فأرتاح."

* * * * *

في صباح يوم جمعة كنت أيضاً في بيت الطبيب، وكنا نتهيأ للخروج في نزهة خريفية إلى إحدى القرى القريبة، حيث سيعود الطبيب أثناء ذلك بعض مرضاه الفقراء. كان هو منشغلاً بوضع بعض الأدوية في حقيبته. بينما كنت في العريشة أمام الباب أبري عصياً بمطواتي. ولوهلة سمعت الباب الخارجي يفتح، وخادم الطبيب يكلم أحدهم، وعندما رفعت رأسي رأيت سليمان حوذي عزيز باشا منتصباً أمامي.

حدثنا عن عودته مع الباشا من بورصه حوالي منتصف الليل. فقد تسلموا مساء البارحة برقية من استانبول تنبئهم بعودة الأولاد، فأسرعوا بالخروج إلى الطريق.

جاء الطبيب إلى الباب وقد سمع صوت سليمان، فبادره هذا :

t.me/yasmeenbook

- سيدي الطبيب، نزل الباشا إلى الميناء بانتظار وصول الباخرة. إنه يرسل لك سلامه، وينتظرك.

فقال الطبيب دون كثير دهشة :

- لم أكن أنتظر عودة الأولاد بهذه السرعة الفائقة.

هو لم يكن ينتظر عودتهم بسرعة. أما أنا، فلم يكن هناك أي زمن، أو أي ما يمكن أن يقال عنه زمن أطول من هذا الزمن بالنسبة لي !... ما هو سبب هذا ؟ أيضاً لا شيء... كانت سنيحة قد رفضت أخذ حقيبة سفر كبيرة، وقالت للباشا : " إنه أسبوع على أكثر تقدير ". وإني أتذكر كيف كان الباشا متشائماً في ذلك المساء ذي اللون الأصفر الميت وهو يتمتم : " أنا أعرف دخائل هؤلاء الفتفوتات... تركت سنيحة ملابسها رهينة حسب اعتقادها... لكي تقنعنا بأنها لن تتأخر، كذلك لكي تملأ حقيبة سفر جديدة في استانبول... سوف ترى، هي لن تعود قبل عشرين يوماً ". لكن كلها عشرون يوماً... إنه ليس زمناً بالنسبة لي... ما هو السبب؟ لا شيء...

مع هذا، كنت حائراً قليلاً، فبالكتابة والحساب مرت تسعة أيام على ذهابهم. فكيف وسع هذا الزمن القصير كل هذا الوقت الكبير ؟ ذلك المساء الباهت الذي يشبه الدنيا التي لا تنفد ولا تنتهي الذي أمضيته في الطاحونة، والأزمنة التي أمضيتها في دائرة العمل، غارقاً بين الحسابات والأوراق، والتي أدركت طولها وأنها ليست مجرد وهم وخيال من التعب الذي ألمّ بجسمي... والأوقات التي أمضيتها على شاطئ البحر وأنا أرمي البحر بالحجارة... والليالي الكثيرة التي أمضيتها عند الطبيب ملتصقاً به، وأنا الذي كنت أزوره بين الفينة والأخرى : هل وسع الأسبوع هذه الأمور كلها ؟ إني أدهش لهذا، لا لعودة سنيحة.

قال الطبيب الذي وقف عند رأسي يراقب انهماكي مثل صائغ وأنا ابري العصي بمطواتي الصغيرة :

t.me/yasmeenbook

- لقد قدّمت الفتاة صنيعاً رائعاً لعزيز باشا، وفي وقته تماماً... وإلا لكان المقامرون سلبوا وجردوا المسكين وتركوه مثل رأس البصل.. آه من هذا الرجل !...

ثم مال والتقط عصاً من العصي التي اشتغلتها وتفحصها وقال :

- ما أجمل ما تتقنه يداك... مثل حفار الخشب تماماً... لماذا لا تصلح رفوف مطبخي في وقت من أوقات فراغك...

رفعت رأسي، فرأيت عينيه تضحكان بخبث من بين أهدابه البيضاء، وهو يردف :

- إني آسف لنزهتنا، ولكن إذا جاءت الباخرة باكراً، فسيبقى لدينا قليل من الوقت... نمر فيه على قرية أو قريتين من القرى القريبة على الأقل... لماذا ؟

نظرت في وجهه كمن لم يفهم، وسألته :

- لماذا ؟

- ألن تأتي ؟

- لكن الباشا لم يستدعني !

- ما معنى أن الباشا لم يستدعك ؟ من أين سيعرف الباشا أن سليمان سيجدنا كلينا هنا ؟ ثم لا بد أنك لست مقرباً منه مثلي...

بدت على الطبيب ميوله العسكرية، وكان سيؤنبني :

- ألست صديق الباشا ؟ أليس الأولاد تلاميذك ؟

فأجبته بهدوء :

- أنت محق، فمن واجبي استقبال تلاميذي، فأولئك ليسوا طلاب مدرسة... إني أتقاضى راتباً شهرياً من أبيهم.

لم يقل الطبيب شيئاً. ارتديت سترتي وسرت خلفه مكتئباً، مغموماً، باتجاه العربة.

t.me/yasmeenbook

كنا مقطبين في البداية، ثم فرّجت أساريري بعد أن أيقنت أن كبريائي مضحكة.

كان عزيز باشا جالساً في أحد المقاهي على شاطئ البحر.

كان المكان مزدحماً فاليوم جمعة. وكان كثير من الذين كان شغلهم الشاغل في البلدة تهييج الباشا، متحلقين حوله على الكراسي، يستمعون إليه، وصدورهم المتصلة ببعض إلى الأمام، وأفخاذهم الملتصقة ببعض إلى الخلف. وقد دخل الباشا في محاضرة طويلة ومصطنعة عن الزراعة. شارحاً أمثلة عن أساليب الزراعة في أوروبا، منتقداً أساليبهم الزراعية القديمة الباقية منذ عهد النبي نوح. مبيناً لهم إساءاتهم إلى البلد بسبب جهلهم وتخلفهم، كأنما يتهمهم بخيانة الوطن. ونصح بسخرية شديدة بعض الفلاحين الذين أمامه. وكان بينهم بعض الذين لا يتورعون عن قول كلامهم في مواجهة بعضهم؛ فخفت أن يجيبه أحدهم متسائلاً : ((لماذا لا تطبق هذه الأمور في مزرعتك ؟" لكن أحداً لم يفتح فمه.

كنت أعرف أنهم سوف يجيبون هذا الجواب ويتداولونه فيما بينهم عندما يغادرهم بعد قليل، وأنهم سوف يتحدثون بهذا لأسابيع لا تنتهي.

لم يهتم عزيز باشا بنا، بسبب محاضرته، وكان هذا ملائماً جداً لي. فقد صاح بالطبيب من بعيد :

- لم أنت واقف ؟ لماذا لا تجلس ؟

وسرعان ما نهض قسم من الجلوس هناك وقدموا أماكنهم للطبيب، عندما قال الباشا هذا.

كانت نيلوفر تقترب رويداً رويدا، وقبل أن ترسو بوقت طويل جداً، نهض الباشا، ونهض كثير من الجالسين وساروا خلفه نحو رصيف الميناء.

كانت سنيحة بملاءتها الجميلة التي كانت عليها في أول يوم، إحدى أوائل الذين ظهروا على ظهر الباخرة، وكان الباشا في طرف الرصيف يشير لها، ويسألها أسئلة صارخاً صائحاً. خجلت سنيحة من أن تجيبه بالصياح نفسه في هذا الزحام، فأشارت له بيدها إشارة مبهمة، وأسرعت

t.me/yasmeenbook

إلى الخلف، وغابت بين جموع المتهيئين للنزول من الباخرة وهم يحملون حقائبهم وصررهم بأيديهم، بحيث اضطر الباشا إلى اختراق الزحام بصدره متجهاً نحو الباخرة عندما رست على الرصيف. وكان شرطي طويل القامة من شرطة الميناء يفتح له طريقاً في الزحام.

كنت واقفاً بعيداً قليلاً، لأنني قررت الانتظار في الخارج. لكن بسبب ازدحام المستقبلين المنتظرين صار الطبيب بجانبي بشكل ما، فأمسك بذراعي وسحبني إلى الأمام. كانت سنيحة واقفة أمام السلّم المؤدي إلى الطابق السفلي وحقيبتها بيدها. وعندما حاول أبوها تقبيلها كطفلة صغيرة، تراجعت وارتدّت إلى الوراء.

وسمعت الطبيب يقول :

- إنها تخجل من ملاءتها.

هي أيضاً مثل أبيها، لم ترني، لكن عدنان الذي يسد الباب مع أخته، صار عندي بقفزة واحدة وقبّل يدي، وعندما مدّ رأسه نحو وجهي ظننت أنه سيقبل وجنتي أيضاً، لكن حركته هذه كانت لكي يهمس في أذني شيئاً. إذ قال بأنفاس متقطعة:

- انظر ماذا سيحدث الآن !

ثم أسرع فوراً إلى أخته.

كان الباشا يقول لسنيحة :

- ماذا تنتظرين ؟ هيا امشي ؟

قالت وهي تضحك مثل عدنان تقريباً ضحكة طفولية وكأنها تتهيأ للعبة أو مفاجأة ما:

- هناك بعض الأشياء في الداخل، أحضرتها من استانبول يا أبي الباشا.

قالت هذا والتفتت إلى الخلف وأشارت بيدها إشارة، ظهر في لحظتها عند أول السلم رأس عجوز مدور أصلع أحمر.

فتح الباشا ذراعيه، وصاح :

t.me/yasmeenbook

- آه يا نصرت... أهذا أنت ؟ ما هذه المفاجأة ؟

كان الرجل العجوز ذا هندام أنيق جداً. التف الباشا بعنقه، ومد ذراعيه من فوق كتفيه، وفيما كان يلكمه في ظهره لكمات سمعت أصواتها من مكاني حيث أقف، ظهر عند السلم رأس ثان أيضاً.... هذه المرة كانت سيدة مسنة ومتبرجة تبرجاً زائداً. وبدلاً من الملاءة، كانت ترتدي معطفاً حريرياً راقياً حسبما صار شائعاً في استانبول لدى العائلات الراقية جداً والمتفرنجة. والأسنان الذهبية تلمع في فمها الكبير المصبوغ بأحمر الشفاه حمرة فاقعة. ومقابل حياء سنيحة، بادرت هي بلا اكتراث وقالت :

- عمي.

وقبلت الباشا من وجنتيه.

بينما كان الباشا يقول :

- انظروا إلى اللعبة التي يلعبها هؤلاء !

ولكن كان يبدو من انتظار الأولاد عند الباب، ومن فرحهم الماكر المرتسم على وجوههم، أن اللعبة لم تنته.

أعطت سنيحة إشارة أخرى، وراح أناس آخرون يتوالون على الظهور عند السلم. فظهرت سيدة شابة ذات ملاءة لكنها أكثر أناقة بكثير من السيدة ذات المعطف، ثم ضابط خيّال ناحل طويل القامة بهي الطلعة، وبعده آخرون....

كانت هذه لوحة استعراضية تذكر تماماً بالعروض المسرحية التي تقدمها الفرق الأوبرالية الأوروبية على مسرح تبه باشي. ويبدو أن الباشا أيضاً فكّر بهذا، إذ ما عاد يستطيع فتح ذراعيه مستقبلاً القادمين، واكتفى بالوقوف في مكانه مفتعلاً وقفة استعراضية يستعرض القادمين ويذكر اسم كل من يمر أمامه ويصافحه، أو يمد يده لكي تقبل. ويبدو أن من بقوا إلى الأخير كانوا غرباء عنه، إذ لم يسأل عن هؤلاء أيضاً، بل مد يده لكل منهم منتظراً منه أن يقدم نفسه.

t.me/yasmeenbook

فعلاً كان عرض أوبرالي بدون موسيقى يجري على ظهر السفينة.

أما أنا فقد تراجعت خطوة خطوة ولجأت إلى حاجز مروحة هوائية. وكان الباشا قد أمسك بذراع الطبيب وسحبه إلى جانبه، وأجبره على أن يأخذ دور المرافق. وتردد أمام شابة أنيقة وجميلة ربطت شعرها إلى مؤخرة رقبتها بمنديل رقيق بلون شعرها نفسه فبدت كأنها حاسرة الرأس، وقال

- من هذه الآنسة الجميلة ؟

ادّعوا في البداية أنها فتاة ألمانية، وخدعوا الباشا بذلك. وبعد أن جعلوها تتكلم بضع كلمات ألمانية، قالت السيدة العجوز:

- هذه جميلة يا عم... كيف لم تعرفها ؟

وانفجروا جميعاً بالضحك.

فقال الباشا :

- مهلاً، مهلاً... أهي جميلة التي بالت على أصص رياحيني في بيتي الصيفي على شاطئ قنديللي ؟ ويحك يا بنت، ماذا حدث لك هكذا في غضون بضع سنوات؟ هل ستفعلين فعلتك في المزرعة أيضاً ؟

وهكذا أخجل الفتاة، وانتقم لنفسه.

وخوفاً من أن يلعبوا معه اللعبة نفسها، قال عن الشاب الواقف خلف جميلة إنه يعرفه ولكنه لا يتذكر اسمه. وهذه المرة أخبروه أنه مهندس خطيب جميلة، وانفجروا بالضحك أيضاً...

وقف عزيز باشا في مكانه وتساءل :

- أليس هناك آخرون أيضاً ؟

ولما ظهر من بين السلالم عامل تنظيفات ملتح وبيده مكنسة، ناداه ممازحاً :

- تعال لنرى... أأنت من هؤلاء أيضاً ؟

بلغ عدد الضيوف كباراً وصغاراً حوالي الاثني عشر شخصاً. فصرخ الباشا :

t.me/yasmeenbook

- هذه مداهمة، هذه غارة ! أين سأُنوِّم هؤلاء الأشخاص كلهم ؟ كيف سأعتني

بهم ؟

كان يتظاهر بالخوف، لكن سروره البالغ كان طافحاً على محيَّاه.

انسحبت من مكاني بهدوء، وخرجت إلى الميناء، وذهبت إلى بيتي. فقد أردت أن أقنع نفسي بأنني لست من السذاجة والبلاهة بحيث أظن أنهم سيفتقدونني في ذلك الزحام الصاخب.

* * * * *

مرت بضعة أيام لم أتردد خلالها على الطبيب، ولا أدري لماذا هو أيضاً لم يسأل عني.

صار ضيوف عزيز باشا حديث اليوم، وصارت كمليك تموج بالكلام عنهم. وراح الذين يعرفون أنني معلم الأولاد يسألونني عما أعرف. ولما أخبرتهم أنني لم أمر على " مزرعة نارلي " منذ مدة، صاروا هم يشرحون لي ما يعرفون. كان المحاسب يقول :

- صارت المزرعة تكية بكداشية*. عندما نجتمع نحن بضع أصدقاء رجال في بيت أحدنا ونشرب كأسين ونعزف ونرقص قليلاً، نغلق الأبواب والنوافذ، لكي ندرأ الحديث عنا. أما أولئك فإنهم يلهون رجالاً ونساءً معاً جهاراً نهاراً... النساء يتجولن في الحدائق وعوراتهن ظاهرة تقريباً... وفي كل ليلة شيء أشبه بطقس إطفاء الشموع... وبين الفينة والفينة يأتي سليمان فيأخذ ما يجده لدى البقال من عرق ونبيذ وسواه، ويضعه في العربة ويذهب به، إنهم يلهون... ولكن بعد ذلك، هم أناس أسوياء، ونحن سيئون....

---

* - نسبة إلى الحاج بكداش شاعر متصوف عاش في زمن السلطان اورخان، وإليه تنسب الطريقة البكداشية الصوفية .

t.me/yasmeenbook

مع أنني استمعت إلى المحاسب بقرف، لكنني في قرارة نفسي لم أكن أراه متجنياً. فصورتي المعلقة على الجدار كانت قد أخذت من هناك.

ولكن عندما بدأ المعلم يتكلم عن سنيحة مباشرة، اعترضت بقوة، لدرجة أنه كان بإمكاني أن أتشاجر معه في وسط الشارع كالعتالين. ولكن من أنا ؟ ماذا أكون بالنسبة لابنة الباشا ؟

كنت محكوماً ألا أتفوه بكلمة واحدة دفاعاً عنها، لأنني أكون حينها قد سلمت نفسي أيضاً لهم. حتى إنني لم أفترق عن الرجل الكريه عند رأس الزقاق، ولم أتمكن من منع نفسي من تغيير طريقي والسير معه. فرغم كل نفوري، كان من المستحيل أن أتحدى وأمنع احتياجي إلى معرفة أي شيء عنها.

كان المعلم يتحدث عن كل شيء، دون أن يدع حاجة لأي سؤال. هو أيضاً كان يتحدث عن طقس إطفاء الشموع. وصارت كلمة " إطفاء الشمعة " كلمة السر في البلدة. وحسبما رواه المعلم كان بعض أهالي البلدة يذهبون ليلاً ليراقبوا المزرعة، فيتسلقون في الظلام الأشجار التي على جانبي الطريق، ويتفرجون على الفضائح التي تجري في الحديقة الداخلية. وأنه هو نفسه فعل هذا مرة. ففي طقس " إطفاء الشمعة " يطفئون الشموع على الأقل، لكن هؤلاء يضيئون عناداً مصباحين إلى جانب المصباح الموجود في الحديقة. صحيح أنه شاب لكنه يعرف اللهو بشرف. كانوا يرقصون في القرى نساء عاريات، لكن هذا أشبه بما يجري في الملاهي الليلية، فهن نساء عاهرات يعرضن شرفهن للبيع ببضعة قروش، أمسك بذراعي وأوقفني في وسط الطريق، وقال:

- أخي السيد، صدق بالله، لقد رأيت في عالم الليل نساء عاريات، عوراتهن مكشوفة للعيان، إلا أنهن كن يغطين شعورهن. أما هؤلاء فهن نساء عائلة شريفة... ثم كلهم أبناء عائلة واحدة... أي أنهم إخوة... رغم ذلك تتجول النساء مع الرجال بأذرع وصدور مكشوفة. نصبوا الحاكي ووالله وبالله راحت النساء يرقصن، وآباؤهن وأزواجهن القوادون يتفرجون عليهن بفخر... ثم يختفون ذكوراً وإناثاً، زوجاً زوجاً، كما في جراب الحاوي،

t.me/yasmeenbook

ومن يدري ماذا يرتكبون من خطايا في زوايا الحديقة المعتمة؟ يعني إن من يتفرج عليهم من فوق الأشجار بشر أيضاً... نحن أيضاً لنا روح. لو دخل بعضهم عليهم وقالوا : " أليس لنا نحن أيضاً نصيب ؟ " بل حتى لو خطفوا واحدة أو اثنتين من النساء وذهبوا بهن إلى بستان الزيتون. هم محقون، ونحن غير محقين... هيا إلى الدرك، والمحاكم، والسجون... هذا كله كان لا شيء لدى الأقدمين ولا يهمهم، أما أناس اليوم فلم يبق لديهم دم.

كان أهم شيء فيما رواه المعلم، هو ذهاب ابنة الباشا والصينية بيدها وتقديمها الشراب لضابط عند بركة الحديقة. وكان موقع المعلم أعلى الشجرة بعيداً بحيث منعه من أن يتبين ما إذا كان ما قدمته عرقاً أم نبيذاً، لكن لم يمنعه من أن يعرف أن البنت ابنة عزيز باشا. تناول الضابط كأساً أو قدحاً من الصينية وقدمه لها، ثم تناول كأساً أو قدحاً آخر ورفعه، وشربا متقابلين. ودخل المعلم في حديث عن الأخلاق والتربية والتعليم، وهو يقول:

- أي خير يرجى من فتاة تعلمت في مدرسة فرنسية ؟

كنت أحس وأنا أستمع إلى هذا الرجل أنني غرقت حتى شفتي في مستنقع من الاشمئزاز. لكن الغريب في الأمر، أنني كنت في تلك المسألة مؤيداً له، كنت معه. بحيث أنني عندما دعيت في اليوم التالي إلى المزرعة، ذهبت، لا من أجل خمسة أو عشرة القروش التي أتقاضاها، ولا من أجل أي شيء آخر، وإنما من أجل أن أفعل ما فعله المراقبون على رؤوس الأشجار، ولكي أؤكد الاشمئزاز الذي في نفسي.

تسلمت عند الصباح السطرين اللذين كتبهما الباشا بقلم غامق على غطاء علبة سجائر أرسلها مع الحوذي سليمان " سوف ترسل خمسون ليرة إلى بورصة ". ولكن كان قد شطب على هذه الكتابة. وفيما كنت أحاول فهم ما يعنيه هذا، قلبت علبة السجائر وإذ بالكتابة المرسلة إلي على ذلك الوجه. طبعاً لن يرسل لي عزيز باشا مغلفاً مهوراً بالختم الأحمر ! يقول الباشا :

t.me/yasmeenbook

لماذا لا تأتي ؟ بقي أسبوعان على امتحانات عدنان. هل أنت مريض ؟ حاول المجيء حتى لو كنت مريضاً!".

ذهبت؛ ورغم أن الوقت كان عصراً، كنت أرتجف وأنا أظن أنني سأرى الزحام الذي رأيته في الباخرة، ينتظرني في الحديقة مصطفاً بانتظام. لكنني لم أجد غير الرجل ذي الرأس الأصلع الأحمر متمدداً على أريكة متأرجحة تحت إحدى الشجرات. كان مستغرقاً في النوم، أو أنه لم يكترث بي، فلم يفتح عينيه. استقبلني عدنان عند باب القصر الداخلي، وأخبرني أن أباه الباشا خرج في نزهة مع الضيوف، وأنهم تركوه في البيت لكي يدرس. كان يجب أن يكون مكتئباً، لكن سروره برؤيتي سرعان ما أزال كآبته.

رغم وجود شيء ما يعتمل في صدري، كان علي أن أكون سعيدا لعدم وجود سنيحة في البيت. إذ كان صعباً علي أن أراها بين الآخرين إنسانة أخرى غير التي عرفتها. اصطحبت الطفل على عجل إلى غرفة المكتبة وفتحت كتاب العلوم الدينية، لكي أنهي الدرس قبل لحظة. وبعد أن راجعت له الدروس السابقة، وطلبت منه أن يدعو ببعض أدعية الصلاة، انتقلت إلى الحساب.

كنا قد بدأنا مسألة كُسْرية عندما سمعت صرير الباب وهو يفتح، فالتفت. رأيت سنيحة أمامي، حرت. لكنني لم أظهر حيرتي هذه. أما هي فصافحتني بوجهها المعهود تماماً قائلة :

- لقد نسيتنا يا سيادة المعلم.

فقلت بسرور :

- لا، ولكني سمعت بوجود ضيوف لديكم. وطبعاً هو ليس وقتاً للتفكير بالدروس.

كانت كلمة " سمعت " هذه غريبة، لأن سنيحة كانت قد رأتني ذلك اليوم بين المستقبلين، حتى أنها حيتني مبتسمة من بعيد. لكنها لم تنتبه لهذا، أو ربما نسيت أنها رأتني ذلك اليوم.

t.me/yasmeenbook

هي أيضاً تكلمت كوالدها قائلة :

- لا أهمية لذلك بالنسبة لي، فالأعمال كثيرة بحيث لا تدع لي بطبيعة الحال مجالاً للتفكير بالدروس. لكن امتحانات عدنان تقترب، وهو لا يدرس ما لم يضغط عليه.

ثم جلست على كرسي دون أن تزيد على ذلك شيئاً.

- أتسمحين لنا أن نكمل، لأننا فعلاً تأخرنا جداً.

وابتسمت وأحنيت رأسي على الأوراق.

انتظرت سنيحة فترة دون أن تصدر أي صوت. لكنها انفعلت عندما لاحظت أنني لا أستطيع أبداً إفهام أخيها مسألة كسر عادي. فاقتربت منا وتدخلت في الدرس، كأن عدنان سيفهم بشكل أفضل إذا كنا اثنين. ولكن عندما رأت الأمور تختلط أكثر، اعتذرت وانسحبت. ثم فجأة بدأت تتحدث عن الضيوف :

- إنني أتعب كثيراً، والأصح أنني أنا فقط التي أتعب.

رفعت رأسي ونظرت في وجهها. كان وجهها قد نحل قليلاً، وشحب، وبدا لي جفناها متورمين قليلاً... طبعاً لا بد أن تتورم، فكل هذا اللهو، وهذا التعب....

لكنها قالت عكس هذا :

- إني أتحمل العبء كله يا سيد شرف... فالضيوف أناس يصعب إكرامهم... أنت تعرف أبي الباشا، وعدنان ما زال طفلاً سلمه الله... إنه يقلب كل شيء رأساً على عقب... يعني ما يجب أن تفهمه أني أقوم بدور سيدة منزل مدبرة، لا يمكنك تصوره. خرجوا أيضاً للنزهة... بعضهم يرتاح في غرفته... تذرعت بصداع في رأسي... لعلي أتمدد وأرتاح بضع ساعات.

قلت مبتسماً :

- لماذا أنت واقفة ؟

كان يمكن لتذرع سنيحة بصداع رأسها وبقائها في البيت اليوم، ثم إقبالها علينا وجلوسها بصمت وسكون، أن يجعلني أتخيل خيالات سعيدة،

t.me/yasmeenbook

لو لم تكن سنيحة فتاة من عالم آخر مغاير لعالمي، ولو كانت الصداقة التي بيننا صداقة أي شاب وفتاة من سوية واحدة، لكن هذا كان ممنوعاً علي.

مع هذا، من الممكن ألا يكون صداع رأسها مجرد ذريعة، لأنها كانت أثناء حديثها تضع يدها على رأسها بين الحين والآخر، وتضغط على صدغيها، وتتنفس تنفساً عميقاً.

لم أعد أستطيع رفع عيني عن وجهها المألوف. الذي غيره المرض تغييراً تاماً عما ألفته وعرفته.

أو لست أنا الذي كنت أكرر بيني وبين نفسي، بين فترة وأخرى قول الشاعر الإنكليزي أو الفرنسي " أنا إن كنت أحبك، فمالك أنت ؟ ".

لذلك لماذا لا أمعن النظر في وجهها الذي ربما لن أراه ثانية، كأنني أمعن النظر في الصورة المعلقة على الجدار، في ضوء الشمس المتسلل من النافذة الذي ربما لن يضيء كضياء هذا اليوم في أي زمن قادم ؟ وربما لن أستطيع رؤية هذا الجسد ثانية، وفي مثل هذه الساعة، والذي يبدو بالتعب الذي أفقدها التحكم بتقاطيعه، كجسد امرأة مريضة مستلقية على فراشها. بل والأروع أنه كان يبدو لي كجسد امرأة متعرية بكامل عريها ومفاتنها.

- لا بد أن تبقى على العشاء، أليس كذلك ؟ تتسلى وتتعرف على ضيوفنا. سترى كم هم أناس مسلّون... إني أريدهم أن يغادروا قبل لحظة لأنني ضقت ذرعاً بهذا التعب، وفي الوقت نفسه لا أريدهم أن يذهبوا لأن أبي الباشا يتسلى معهم... إنه شيء مثل هذا...

إنها تضحك الآن، ويضفي عليها شحوب لونها جمالاً لا يمكن أن يرى في أحسن حالاتها.

وصلت إلى طرف شفتي جملة ذات إباء غير مناسبة، وكدت أن أقول لها :

- ولكن، ولكن، على أي شيء في سيتعرف أولئك؟

t.me/yasmeenbook

لكني عدلت عن ذلك وقلت :

- لو تعرفين كم من الأعمال لدي، ثم إنني أنا أيضاً مريض إلى حد ما.

- لا أهمية لأعمالك، ولا بد أن مرضك ليس مرضاً شديداً يجعلك طريح الفراش، أي أننا لن ندعك، إذ سيتضايق أبي الباشا.

سيطر على سنيحة الآن أيضاً عناد فرض رأيها على الآخر الذي قبالتها، وبدت ملامح القسوة على حاجبيها وجبينها.

كان يجب أن أصر على الذهاب، بل وسأهرب إذا اقتضى الأمر. ولكن برقت في ذهني فجأة فكرة كالبرق. إذ كانت قد قالت إن واحداً أو اثنين من الضيوف ينامان في الداخل. أيكون أحدهما ذلك الضابط الفارس الذي ذهبت إليه بصينية المشروبات، ثم احتسيا المشروب معاً وجهاً لوجه ؟ إذا كان الأمر كذلك فسوف يتغير في نظري فجأة معنى التعب البادي على وجهها، وهالة السواد حول عينيها، والتورم الخفيف في شفتيها، والحمرة في جزء من خدها. هل كان الضابط الفارس في الداخل يا ترى ؟ لا يمكن أن أعرف ذلك من أي شخص. ولكن أن أذهب وأغادر دون أن أعرف....

قلت متظاهراً بالارتباك لتأخر الدرس :

- حسناً يا آنسة سنيحة... نتحدث في الأمر مرة أخرى... سأرجوك مرة ثانية... فإذا لم تقبلي اعتذاري، سنقرر حينها... ولكن فكري مرة أخرى حتى ذلك الوقت، بأن بقائي لن يفيد سوى في إزعاج ضيوفكم.

طلبتُ من عدنان أن يقرأ " آمنت ". لكني تذكرت أن الدرس درس حساب، فانتقلت إلى بحث الكسور. وضحكنا ثلاثتنا، ثم وبحركات مترددة عادت سنيحة وجلست على الكرسي بعيداً. وبدأنا نحن الدرس. لكني أنا الذي أخطأت في بحث الكسر هذه المرة. ورغم ضعف عدنان التام، صحَّحَ لي خطأ ارتكبته في التقسيم، فقلت مازحاً :

- أنا لن أعلمك الحساب، ولكن يبدو غالباً أنك ستنسيني إياه.

t.me/yasmeenbook

ولا بد أن سنيحة ضحكت معنا أيضاً. لكني لم ألتفت إلى تلك الجهة. وبعد قليل نهضت بتردد، وخرجت ببطء. تظاهرت بأني لم ألاحظ ذلك.

*****

أخيراً عادوا... وكان الضابط الفارس معهم أيضاً. شعرت برغبة شديدة في البكاء يصعب ضبطها، عندما رأيته قادماً من الجهة المقابلة مع عزيز باشا وهما يتحادثان، وبدا لي أن مغادرته البيت في ذلك اليوم، كأنه يحل كل الأمور، وينقذني من كل حيرتي.

ارتبكت في البداية عندما قررت البقاء. ثم رويداً رويداً هيأت نفسي كأنني سأدخل في عراك لا رحمة فيه مع هؤلاء الناس.

كنت متحفزاً مثل نابض سينفلت عند أدنى حركة، وقد زادت رؤيتي لعودة الضابط الفارس من النزهة، من جرأتي بشكل استثنائي، ورفعتها إلى حد جرأة السكران، أو جرأة المجنون. صحيح أن سنيحة ذهبت إليه واستقبلته هو أولاً من بين القادمين، وتحدثت معه، بل وحتى شبكت ذراعها بذراعه وسارت معه بضع خطوات، لكن هذا كله لم يعد أمراً ذا أهمية.

بادرني الباشا بالتهجم علي مخشناً صوته :

- يعني لماذا أنت غائب عن الأوساط منذ عدة أيام ؟

مرّرت ذلك كله بحركات صديق عزيز. عيناي تلمعان، وصوتي واضح كما لم يكن في أي وقت، بل وكان صفيقاً. تركت سنيحة الضابط، والتفتت إلي قائلة :

- أبقيت السيد شرف بصعوبة يا أبي الباشا... كان يريد الذهاب.

ودون أن أدع مجالاً لأن يفتح فمه، قلت :

t.me/yasmeenbook

- إني مريض يا سيدي الباشا، وأنا كذلك منذ بضعة أيام... فقط أذهب بصعوبة إلى مكان عملي. فالمعلوم أن أولئك لا يصدقون المرض...

وبالصوت الأجش القاسي نفسه قال الباشا :

- الحق مع العفريت هذه المرة.

وأشار إلى الطبيب القادم خلفه، وقال :

- انظر واعتبر، ذاك هو المريض الحقيقي... هل يدفع قرشاً ؟

عرفني الباشا على الضيوف القريبين منه، بقوله " مصائب رأسي !" وعرفهم علي بأنني " مدرس العلوم الدينية " لابنه. حييتهم بإحناءة بسيطة من رأسي. لكن السيدة ذات السن الذهبي فقط بسطت يدها مصافحة، وقالت ضاحكة مازحة :

- أين عمامتك ولحيتك ؟ أيمكن أن يكون مدرس العلوم الدينية هكذا ؟

تكونت لدي فكرة بحسب ما سمعته من الخارج، أن طعام العشاء هذه الليلة سيكون واحداً من المآدب الفخمة التي نشاهدها في الأفلام السينمائية. حتى أنني كنت أتصور أن بعض الرجال الذين غابوا عن الوسط بعد العودة من النزهة، صعدوا إلى غرفهم ليرتدوا أغلى ملابس السهرة، لكني رأيت خادم القصر العجوز المعهود يبدأ بتجهيز المائدة المعتادة نفسها في الشرفة، تساعده امرأة قروية. ولكن كانا يكبران ويوسعان المائدة نفسها بإضافة بعض طاولات الحديقة إليها.

تجولت وعدنان في عتمة المساء في زوايا الحديقة البعيدة، متحاشياً الاختلاط بأحد. بدأت نوافذ الطابق العلوي تضاء كما تصورت. كان مصراعا إحدى النوافذ مفتوحين، فشاهدت الضابط الفارس يتجول في الغرفة بالقميص، متحدثاً بين الحين والآخر ممازحاً امرأة غير مرئية في الداخل. مسح مرة وجهه ويديه بمنشفة ألقتها إليه من بعيد. ثم بالحركة نفسها قذف بالمنشفة إلى الداخل. ثم عبر من الداخل خيال امرأة ترتدي الأبيض، ثار الشك في نفسي، من هي المرأة يا ترى ؟ لا أذكر بأي حديث

t.me/yasmeenbook

كنت ألهي عدنان وأقترب من نقطة أرى منها النافذة بشكل أوضح. نظرت إلى شجرة بجانبي وقلت بتأثر : " هل كنت سأتسلق هذه الشجرة يا ترى لو لم يكن عدنان معي؟ " وابتسمت. فهل يمكن تصور دناءة لا يقوم بها المخلوق المدعو بالإنسان ؟

شعرت بأن وجهي بدأ يكفهر ويعبس ويفقد صفاءه القديم، وأنه سيصعب علي الجلوس إلى المائدة بهذه الحالة، ولأننا مجموعة فقد ينتقدني بعضهم، وقد يتضايق آخرون، وسأجد صعوبة في الإجابة، وسأقع في وضع قروي مرتبك، أو، وهذا هو الأسوأ، قد أترك نفسي لانفعالاتها وأتصرف بطيش ونزق. كان لا بد لي أن أعرف من هي المرأة. وكنت أخاف كالمجنون من أن ينطفئ ضوء النافذة دون أن أعرف ذلك، إذ كان علي حينها الهرب من هنا دون تفكير بأي شيء. وبعد قليل راح الضوء يتجول في الغرفة. وبدأت ظلال كبيرة تتحرك على الأقسام المرئية من الجدران والسقف. وخلت أنني رأيت التفاف وتداخل الظلال ببعضها باختلاجات مخيفة. هل كنت على وشك الجنون ؟...

صوت الباشا الأجش يصيح :

- إلى الطعام، إلى الطعام !...

انتهى كل شيء. ولكن في تلك اللحظة بالضبط أضيء محيط النافذة، وبانت المرأة ذات الرداء الأبيض وبيدها شمعدان كبير، تميل خارج النافذة كي تقطف زهرة لبلاب متسلقة حتى النافذة، كانت تقرب الشمعدان من وجهها كأنها تريد أن تبين وتظهر قسماتها وملامحها بشكل واضح لا يدع أي مجال للشك. لم تكن سنيحة. لم أستطع تمالك نفسي وبدأت بالبكاء بكاء واضحاً لاحظه عدنان. فقلت ضاحكاً :

- دخلت حشرة ليل طائرة في عيني.

أخرجت منديلاً من جيبي، والحمد لله أنه لم يخطر ببال عدنان أن يسألني : " هل دخلت في الاثنتين معاً ؟"

عادت إلي بهجتي وحيويتي بأكثر من السابق. ولا أذكر أنني انتقلت من حالة إلى حالة بهذه السرعة، في أي زمن في حياتي، ولا حتى في نوبات

t.me/yasmeenbook

المرض الكبير الذي عانيته مرة أو مرتين من أدنى دركات التعاسة إلى هذا القدر الكبير من النشوة والبهجة. ماذا أصابني هذه الليلة ؟ الأصح أية حالة صرت إليها دون أن أدري ؟

عندما جئنا جميعاً إلى المائدة، واتخذ كل واحد منا تقريباً مكانه، صاح الباشا:

- أين أنتم ؟

تذكرت أنه قدمني قبل قليل على أنني مدرس العلوم الدينية، فقلت بصوت جهوري حرت كيف صدر عني :

- عفواً يا سيدي الباشا... كنت أشرف على أداء عدنان لصلاة العشاء.

جلسوا إلى المائدة بشكل عشوائي بدلاً من نظام التشريفات الذي كنت أتصوره. بحثت لنفسي عن مكان في أدنى طاولة من الطاولات المضافة، ولكن بعكس ما تصورت كانت تلك الأماكن مشغولة. أرادت سنيحة الواقفة كصاحبة بيت مضيفة أن تفسح لي مكاناً بجانب الطبيب، لكن السيدة ذات السن الذهبي قالت :

- لا، لا، دعي مدرس العلوم الدينية لي... فلدي بضع مسائل شرعية سأستشيره فيها هذه الليلة.

وطلبت بدون تكلف، من رجل ناحل أحدب بجانبها، قائلة :

- اذهب إلى الطرف المقابل !

وأنهضته من مكانه، وأجلستني بجانبها.

قال الرجل الناحل لعدنان الذي أفسح له مكاناً صغيراً بجانبه :

- هل تعلمت صلاة العشاء ؟ سوف تعلمني إياها.

فقال عدنان الذي لا يفهم في المزاح، كما لا يفهم في الحساب :

- لكننا لم نصلّ، دخلت حشرة طائرة في عين السيد شرف، لذلك تأخرنا...

t.me/yasmeenbook

قد يكون هذا أفضل، فربما بقي شيء من هذه الدموع المضحكة على وجهي الذي لم يبك حتى في أكثر أوقاتي يأساً. إذ بالمصادفة كان المصباح الذي فوق رؤوسنا يرسل كامل ضوئه نحو وجهي.

كانت المائدة على الطريقة التركية القديمة، مكونة من المعجنات والكباب. الاختلاف الوحيد كان وجود أقداح العرق أمام الرجال فقط؛ كما كانت هناك أمام السيدة ذات السن الذهبي التي بجانبي، زجاجة شراب، وكأس مملوءة...

تناولت السيدة الكأس وقالت :

- هذا هو أحد الأسئلة التي سأسأل عنها مدرس العلوم الدينية : الشراب حرام في الشريعة، حتى القطرة منه حرام، لكني للأسف لا أستطيع البقاء دونه، وأمرض إذا لم أشرب، بماذا تفتي ؟

- أوضحت العذر بنفسك يا سيدتي... طالما كنت تمرضين من دونه... فأنت مضطرة لشربه... ولكن يجب الحصول على تقرير طبي بذلك من السيد الطبيب...

وأشرت بيدي إلى الطبيب.

فقال الطبيب بأسلوبه المازح دائماً :

- أحال السيد شرف الموضوع إلى مرجع مناسب، شكراً. سوف أجرِّد السيدة نهال من ملابسها تماماً بعد قليل وأعاينها، لأرى ماذا سأجد فيها.

انفجر الحاضرون بالقهقهات، حتى أن بعضهم صفق لهذه المزحة المكشوفة. إذن فالسيدة نهال امرأة متفرنجة جداً إذا يمكن المزاح معها مثل هذا النوع من المزاح. وأثناء الحديث بعد قليل قالوا إنها عاشت فترة طويلة في أوروبا، بل ووضعت على رأسها قبعة أوروبية.

ثم سألت السيدة هذا السؤال أيضاً :

- أحد الأسئلة التي سأسأله عنها كذلك هو هل القبعة مثل الشراب حرام أم لا ؟

t.me/yasmeenbook

- ما المناسبة يا سيدتي، حتى أكبر السادة المتصوفين يرون أنه " لا بأس من ارتداء القبعة إذا كان هناك خطر إصابة الرأس بأذى من شمس أو مطر أو برد " مع ذلك فإني سأحيل هذا السؤال أيضاً إلى السيد الطبيب.

تعالت الضحكات أيضاً... الخلاصة، لقد تماشيت دفعة واحدة مع هذه الثلة التي يقال عنها راقية.

كانوا قد وضعوا أمامي أيضاً قدح عرق مثل بقية الرجال. وبعد قليل أرادت السيدة نونهال أن أشرب معها نبيذاً، فطلبت كأساً وملأته بيدها، وأسالت بضع قطرات منه على إصبعها، مستعملة تلك الحيلة الشرعية المعروفة وقالت مازحة :

- طالما أن القطرة منه حرام، فإني أخرج هذه القطرة وأرميها، والبقية حلال.

ثم قرّبت الكأس بيدها من شفتي. ضحكات وتصفيق أيضاً...

بضعة أقداح العرق المتتالية التي احتسيتها عقب انفعالاتي الغريبة المبهمة ذلك المساء، ثم كؤوس النبيذ التي أجبرتني جارتي على احتسائها، غيبتني تماماً عن الوعي.

المرأة ذات الرداء الأبيض التي رأيتها قبل الطعام في نافذة الضابط الفارس، تجلس بجانبه الآن، إنهما زوجان، ومتزوجان حديثاً...

كنت أعبر عن بهجتي بفرح طفولي؛ وأرغب بالبكاء ثانية كلما نظرت إلى سنيحة الجالسة في جانب من المائدة، وقلت في نفسي : " إذن فقد انحططت لدرجة الشك مرتين بدون سبب بهذه الطفلة النظيفة النقية !" أي إنني كنت ثملاً، وفي هذه الحالة قد أتصرف تصرفاً طائشاً. لكن واقعة وقعت أعادتني بغتة إلى رشدي.

ملأت السيدة نونهال كأسينا مرة أخرى، رغبة منها في أن نشرب سوية. وعندما رددتها، أخذت كأسي وقرعته بكأسها، ثم مدّته إلى شفتي. وهكذا لامس ذراعها العاري صدري " لأنها كانت الوحيدة التي ترتدي ثوباً مكشوفاً دون بقية النساء " وحط لحم جسدها الحار المترهل

t.me/yasmeenbook

بكل ثقله فوق جسمي. كان يمكن أن ينسكب نبيذ الكأس فوقي، أو أن ننقلب سوية إلى جانب ما في أحضان بعض. ويبدو أن جاري الجالس إلى يساري أحس بهذا الخطر، فراح يدعم ذراعيّ من الخلف. وسمعت صوت سنيحة وهي تقول :

- عفواً يا سيدتي، فالسيد المعلم ليس معتاداً جداً على الشرب.

كانت المرأة سكرى، وعيناها الزرقاوان الكحيلتان تنظران إلي عن قرب نظرات نارية غريبة. وأسنانها الذهبية المتطاولة بانتفاخ وانفتاح شفتيها الرطبتين اللتين بدأ صباغهما يسيل، تتشابك وتتداخل ببعضها. ربما كان هذا هو ما يقال عنه نوبة هستيرية !...

هذه هي الواقعة التي أزالت بغتة سكري، فرحت أنظر إلى نفسي وإليها في الطرف المقابل من المائدة في قلب ضوء ندي.

ضحكوا... هذا مؤكد... وضحكوا كثيراً... كما في المسرح... فما زالت أصوات القهقهات والتصفيق تدوي في أذني. لكن كان هناك أيضاً من تأثر في النهاية... وهذا ما دعا سنيحة إلى أن تنبه السيدة ذات المكانة وفي مقام جدتها. لكن النتيجة واحدة حتى لو رأوا ولو تأثروا. فقد جعلت من نفسي مهرجاً. ورفهت عن الجالسين إلى مائدة عزيز باشا. مع أنه كان لي أمام مثل هؤلاء الناس، رصانة كرصانة كلاب الشوارع المبتدئة بالسعار على الأقل. تلك أيضاً خصلة لم استطع المحافظة عليها. لم يبق للموضوع أي جانب غامض. فهذه السيدة حثالة من حثالات الطبقة التي نقول عنها راقية. وربما يعرف الذين حولها ماهيتها ؛ لكنها تبدو مهضومة لهم بسبب أموالها وموقعها وعلاقاتها الاجتماعية، كالأب والزوج والصهر مثلاً. يمكنها أن تبدو كذلك... ولكن لماذا صادفتني أنا ؟ والأصح، ما عملي بين هؤلاء الناس ؟

لا يمكنني أن أدعي بأنني صحوت من سكري. فهذا لم يكن صحواً طبيعياً، بل كان مجرد يقظة؛ وشكلاً جديداً واستمراراً لأزمة نفسية تلونني بألوان شتّى، وتغيرني من شكل إلى شكل، منذ أول المساء حتى الآن.

t.me/yasmeenbook

ربما ما كنت لأفكر بهذا في وقت آخر، ربما تصرفت تصرفاً غير لائق، كي أحمي نفسي، كأن أترك المائدة وأغادر. لكني في غمرة ذلك الضياء الغريب الذي فصلني عن نفسي، وجعلني أراقبها من الطرف المقابل تماماً، وجدت التصرف الأصح. إذ انقلبت صخرة قاسية لا يمكن أن تزحزحني المرأة قيد أنملة حتى لو سقطت فوقي بكامل جسمها المترهل. فأخذت الكأس من يدها، وقربته من شفتي، وقبلت حوافه باحترام، ثم وضعته على المنضدة.

أثناء النهوض ومغادرة المائدة، رأى الرجل المحترم الجالس بجواري الأيسر، والذي عرفني بأنه رئيس محكمة استئناف، ضرورة أن يعتذر مني نوعاً من الاعتذار. فالسيدة نونهال كما توقعت سيدة اشتهرت بتصرفاتها اللامسؤولة، لكنهم يغضون الطرف عن بعض تصرفاتها الصغيرة الطائشة، بسبب علاقات القرابة التي تربطها ببعض الناس المهمين ذوي المكانة.

أردف جاري في المائدة الرجل المحترم قائلاً :

- ثم إنها عانت من بعض المشكلات. فقد تزوجت عدة مرات وطلقت. وأخيراً رمى بالعذر الذي يتحجج به الناس الطائشون " إنها مريضة منذ عدة سنوات، ولا تعتبر مسؤولة عن تصرفاتها ".

كان وهو يقول هذا يتكلم كرئيس محكمة استئناف.

عندما لمحني عزيز باشا الذي كان يتحدث مع الرجل الأصلع الذي عرفت فيما بعد أنه رئيس تجار سابق، ومع بضعة أشخاص آخرين، دعاني إليه، وقال :

- حمداً لله على السلامة يا شرف، تجاوزت الوضع بسهولة، إنها لا تبالي، وتهاجم ما إن تعثر على شاب ظريف جميل. عرفت ما سيجري لك عندما دعتك إلى جانبها، ولكن ماذا أقول ؟

كانت تصدر عن الحاكي بعض الألحان الغربية بين الفترة والفترة، وكان رئيس التجار السابق ذو الرأس الأصلع الأحمر، يقول أثناء مغادرتي:

t.me/yasmeenbook

- ما رأيك في أن نرقص رقصة الكادريل يا باشا ؟

كنت أخاطب نفسي أثناء توجهي إلى جانب من جوانب الحديقة المظلمة، قائلاً : " كادريل... ما أجمل ذلك... إني مستعد لأن أرقصها مع السيدة نونهال... وربما يتفرج المعلم الآن على الحديقة من أعلى الشجرة !"

كان هناك آخرون أيضاً يتجولون مثلي في الحديقة، بعد الطعام، كلمني بعضهم بضع كلمات... حقيقة إنهم أناس غير مثيرين للحذر. كان الحاكي مستمراً في العزف. لمحت الضابط الفارس يراقص زوجته. يبدو أنهما عريسان جديدان، وهذه الرحلة بالنسبة لهما شكل من أشكال شهر العسل حسبما قيل في أحاديث المائدة. لم يكن لديهما الوقت ليريا أي شيء في الدنيا، لكنهما توقفا عن الرقص عندما مررت بالقرب منهما بين عتمة الأشجار، وسارا نحوي. كانا محبوبين ولطيفين. وفيما كانا يخاطبانني قائلين : " خوجه، خوجه "، علما أنني أحمل شهادة الحقوق، فقالت الشابة بابتسامة صافية :

- أنا أيضاً صدقت في البداية، وسألت سنيحة بصدق " أهناك خوجة علوم دينية بهذا الزي، وبكل هذه الكياسة ؟"

حدثت هذه المرة مصادفة أخرى، ففيما كنا نتحدث جاءت سنيحة تحمل بيدها صينية القهوة، وقالت :

- إني أبحث عنكم.

وبعد أن وزعت علينا القهوة، قالت :

- بقي فنجان واحد، لكني لا أذكر فنجان من هو.

فقالت زوجة الضابط الفارس، بضحكة ذات مغزى :

- عله لا يكون فنجان الخالة نونهال.

قطبت سنيحة تقطيبة عقدة خفيفة وقالت :

- ليس كذلك، تلك أنمناها بعد الطعام مباشرة، إنها مريضة، المسكينة مريضة تماماً، وفوق ذلك هي تشرب. لقد عوَّدها صهرنا المرحوم برتاف على تعاطي المشروبات.

t.me/yasmeenbook

مع أن كلام سنيحة كان موجهاً للزوجين الشابين، لكنه في حقيقته كان لأجلي. إذ كان ذلك بالنسبة لها بمثابة اعتذار مني.

قالت سنيحة عندما لم تعثر على صاحب الفنجان الأخير ؛

- ربما كان زائداً، يجب أن أتناوله معكم، سيكون ذلك معيباً أمام أستاذي ولكن...

كانت تضحك ضحكة طفولية وهي تضيف قولها هذا .

بدأنا نشرب قهوتنا وقوفاً، لكنها قالت وهي تجلس على جذع شجرة مقطوعة :

- سأفعل هكذا، إذا سمحتم لي، فإني متعبة للغاية.

فقال لها الضابط :

- صرت سيدة بيت تماماً يا سنيحة، أحسنت! ما كنت أتوقع هذا منك.

فأجابته سنيحة :

- وأي سيدة! أعمال البيت كلها تقع على عاتقي... تماماً كمديرة شؤون منزل أبي...

كانت تضحك وهي تخشخش مجموعة من المفاتيح المعلقة بزنار خصرها، فقالت زوجة الضابط :

- لكن يبدو كأن أباك الباشا سوف يهرّب مديرة شؤون منزله قريباً، أتدرين بأننا ألنّاه شيئاً فشيئاً ؟

أضاف الضابط ضاحكاً :

- بل إنه لان حقاً. لقد ضغط السيد نصرت على الباشا اليوم أيضاً قائلاً : " يصعب توفر مثل هذا النصيب دائماً، ابن عائلة أصيلة، ذو تحصيل دراسي جيد، جميل، مستقبله برّاق... صحيح أنه يتنقل في مختلف البلدان الأجنبية بحكم وظيفته، لكن هذا أكثر ما يسعد بنات اليوم ". طبعا الباشا شتم وسب قائلاً : " لن تتركوا هذه البنت لأبيها الغريب ولو بضع سنوات " ثم انتفض وشب وصاح وصرخ : " هل دخلتم بيتي كقطاع

t.me/yasmeenbook

طرق أيها الأوغاد ؟!... لا أريد سماع هذا الحديث في بيتي ثانية!". لكنه هو الذي تحدث بعد قليل قائلاً : " اعتبرناكم آدميين وأرسلنا ابنتنا لحضور عرسكم... فطلعتم علي بهذه البلية... ورحتم تقولون : " رأى البنت وأعجب بها... وطلبها بواسطة أمه." ربما كان هذا كذباً. ربما رقصا سوية في العرس. أنا أعرف أولئك الغاوين... يجري الرقص، لكن الأفواه أيضاً تعمل بلا توقف... من يدري ماذا أسمع البنت من أكاذيب ؟ ربما قد اتفقا فيما بينهما. سوف أستدعي سنيحة بعد أن تذهبوا، وسأجلسها أمامي وأكلمها بجدية، فإذا استشففت أنها تصرفت مثل هذا التصرف غير اللائق، فلتغرب ولتذهب بدلاً من أن تبكي خفية في الغرف، حينها سوف أكتب لكم ويتم الأمر وينتهي." هذا كلام الباشا. أي أن هذا الأمر تم وانتهي...

تركت سنيحة قهوتها، ونهضت من مكانها خجلى، لكنها أخفت خجلها بستار الجدية، وقالت مقطبة جبينها ذلك التقطيب العنيد :

- رجوتكم وأرجوكم مرة أخرى. لا أحب سماع مثل هذه الأحاديث... أظن أننا لسنا في الأزمنة القديمة... فالفتاة وحدها الآن من تقرر مسألة زواجها أو عدمه.

كانت سنيحة تبدو أكبر من سنها بكثير وهي تقول هذا.

تظاهر الضابط بالخوف، والتفت إلي قائلاً :

- هو ذا فيتو من هنا أيضاً، مهما تكن فإنها بنت أبيها...

حينذاك صار لزاماً علي أن أتكلم أنا أيضاً، فقلت :

- مؤكد أنها هي التي تقرر، لكن الظروف أيضاً تقرر قليلاً....

جمعت سنيحة فناجين القهوة بسحنة غاضبة، وابتعدت فجأة.

*****

اقتربت من الحشد الذي على الشرفة حيث جمع عزيز باشا الضيوف حوله، وأغلبهم من الرجال. كان بعضهم يغفو حيث هو فوق الكراسي المتأرجحة، تحت تأثير ثقل هضم الطعام. والباشا كما هو شأنه دائماً

t.me/yasmeenbook

بحاجة إلى أن يفعل شيئاً، ويتكلم كلاماً مثيراً، ويتحرش بهذا وذاك. لكن المواضيع التي كان يطرحها كلها كانت تنطفئ بسرعة ولا تلتهب. بينما تجمعت النساء مجموعة منفصلة في إحدى الزوايا.

كانوا يمازحونهن بين الحين والحين، من جانب إلى جانب، لكن هذا المزاح أيضاً لم يكن يؤدي إلى نتيجة براقة. بل كن يطلقن بضع ضحكات مجاملة... ثم يغرقن ثانية في أحاديثهن السرية... كان السيد نصرت شهبندر التجار مستلقياً على أريكة متأرجحة مغمض العينين، والحشرات الليلية الطيارة المتجمعة كسحابة تهيج حول ضوء المصباح الذي ينام تحته تماماً، تنزل حتى رأسه الأصلع اللمّاع. ولو لم يحرك يده بين الفينة والأخرى لطردها لقيل بأنه يغفو. وبغتة صاح الباشا :

- هي ي ي انتبه يا نصرت ! هناك نحلة تحوم فوق رأسك.

ويقفز شهبندر التجار من مكانه فوراً، فيتضاحكون مستذكرين كيف لسعت نحلة رأس السيد نصرت قبل يومين.

قال الباشا مقهقهاً :

- هل يجب أن نجلب نحلة لإيقاظك ؟

- لست أغفو يا باشا، إني أفكر... إني أبحث في مسألة حسابية احتمالية كبيرة...

- ما هي تلك ؟

- إنها مسألة تتعلق بالبوكر... وبدؤوا بحديث مطول، بتعابير لم أفهمها. وبدا لي أن رئيس التجار مقامر أيضاً مثل الباشا. ثم انتقلوا إلى الحديث في مواضيع أخرى... أحاديث حول أناس من معارفهم... مرت أحياناً أسماء بعض رجالات العصر المشهورين، فاكتسب الحديث شيئاً من الحيوية.

كنت أقف وحيداً في زاوية الشرفة في مكان لا يستطيع الباشا أن يراني فيه. وبحسب الدوي المخنوق الثقيل المنتظم الذي يدوي في أذني مثل ساعة، فإن نوبتي ما زالت مستمرة، بل وأشد من السابق، إضافة إلى أنه لا

t.me/yasmeenbook

شبهة في أنني سكران، وسكران جداً، لأنني لا أذكر أنني شربت في حياتي بقدر ما شربته الليلة. لكن الغريب أنني شعرت بأنني متفتح الذهن كما لم أكن يوماً في أكثر أوقاتي صحواً. وفي داخل رأسي ضياء يكاد يكون مخيفاً. والأفكار منسقة وواضحة وبراقة كنجوم ليلة صيفية جميلة، أرى بعيني تحركها كالنجوم حركة أبدية منتظمة لا تحيد.

كنت أفكر من ناحية، وأستمع إلى ما يجري من أحاديث دون أن أفوت ولو كلمة منها من ناحية أخرى. ربما يتفرج المعلم من فوق إحدى الشجرات أيضاً على ليلة " إطفاء الشمعة " هذه، ويرى الأزواج الذين يحتضنون بعضاً باختلاجات مخيفة في ظلام الحديقة الواسعة، الدامس. أنا أيضاً رأيتهم في الظلال خلف زجاج نافذة القصر المضيئة، عند بداية هذا المساء...

لم أعد أشمئز من المعلم ولا من أمثاله... كما لا أشمئز من أشخاص في ليلة إطفاء الشمعة الغريبة المجتمعين تحت مصباح تزدحم حوله حشرات ليلية طيارة... فكلهم أناس مختلفون جداً عما كنت أظنهم عليه. لكنني رأيت نفسي أيضاً في قلب الضياء المخيف نفسه، واضحاً وضوح مسألة رياضية حلّت أخيراً بعد طول اشتغال فيها.

عذاباتي كلها سوف تنتهي بحل مشاكل ضيقي الناجم عن الصراع بين الأمل واليأس. أدركت الآن أنني في الوسط، لست من هؤلاء ولا من أولئك، بل وأنني رجل وحيد لست من أي صنف من الأصناف، وحزنت لهذا، ولكن هل يستحق هذا الحزن؟

فليتخبط أولئك وهؤلاء في جشعهم بلا جدوى. فأي فرق بينهم وبين سحابات الحشرات الليلية الطيارة التي تتزاحم حول ضوء هذا المصباح ؟

خبت لهفتي دفعة واحدة بعد أن رأيت نفسي قبالتي مجرد رقم بكل تفرده ووضوحه، كشكل للمسألة الرياضية المحلولة التي حلت بعد كثير من التخبط والصدم والضرب. ففي فترة قصيرة جداً أرتني الفتاة التي تضيع أحياناً وسط هذا الحشد، حلماً أشعرني أنه طويل جداً مثل كل الأحلام. فقد بكيت عندما رأيتها قبل قليل في أحضان أحدهم، رغم أنها

t.me/yasmeenbook

لا تمثل لي أي شيء. ثم عندما اكتشفت أنني كنت مخطئاً، فرحت وكأن كل شيء صار ملكي، وبكيت مرة أخرى. لكني رأيت كل شيء بوضوح في قلب هذا الضياء الكبير، وهو أنه لا يمكن لشيء، أن يكون لي. رغم انتفاض صدغي انتفاضات منتظمة أسمعها بأذني،ورغم انقطاع شيء من صدري وخروجه أحياناً.

عندما رأيت سنيحة بجانبي فجأة، ترجوني أن أضغط دروس عدنان أكثر، قلت لها بهدوء كبير كأنني أقول شيئاً طبيعياً للغاية :

- إني ذاهب.

لم تفهم، فكررت وقلت :

- استلمت أمراً. لقد عينوني في مكان آخر، علي أن أذهب فوراً...

حارت، طلبت إيضاحات. في هذه اللحظة رآها الباشا بجانبي فناداها إليه، وسألها شيئاً، وبعد أن أجابته، مالت عليه وهمست له أشياء أخرى. فالتفت الباشا نحوي مستغرباً وناداني :

- تعال إلى هنا !

ذهبت إليه.

- قلتَ أشياء لسنيحة... هل ما قلته صحيح ؟

وبدون أدنى تردد قلت :

- أجل يا باشا.

- أراك تزجي الخبر بقدر كبير من السرور !

بدأ الجميع يستمعون إلينا.

- أليست هذه أموراً عادية في الخدمة الوظيفية ؟

- هي أمور عادية، لكن الإنسان مع ذلك لا يستقبلها بسرور هكذا؛ يحتد ويغمغم على الأقل.

اهتمام الباشا بمسألة ذهابي كل هذا الاهتمام، أمر غريب وغير طبيعي. وعندما لاحظ عدم إجابتي، توقف، وفكر، ثم ضحك، لكنها ضحكة خجولة، وقال :

t.me/yasmeenbook

- عفواً يا شرف... لم أستطع التفكير. تصورت أن ذلك سيزعجك لأنه أزعجني. أي إنني تصرفت بأنانية معيبة، ولم أفكر في طبيعة السعادة التي ستخلفها خلفك في وظيفة الكاتب الصغيرة في " كمليك ". اعذرني... إن مجرد تغيير الناس للأماكن التي يتضايقون منها، لهو مفرح بحد ذاته، وخاصة بالنسبة لإنسان مثلك. حتى الأمل بضعة أيام في تعلم أشياء جديدة، عندما يذهب المرء إلى مكان غريب، هو مكسب ملموس.

وشارك رئيس التجار نصرت في الحديث قائلاً :

- إني أعرف ذلك أكثر من الجميع.

فرد عليه الباشا :

- ذاك الذي تعرفه أنت يكون عند الذهاب من مرسيليا إلى هامبورغ، ومن هامبورغ لا أعرف إلى أين.

- حسناً، والذهاب بترقية ؟ هل تعرف إلى أين سيذهب السيد شرف، وماذا أعطوه؟ هو على كل حال لن يبقى أربعين سنة محاسباً في " كمليك " ومدرس علوم دينية لابنك... إلى أين أنت ذاهب يا صاحبي العزيز؟

هذا السؤال موجه إلي، ولأني لست جاهزاً. لم أجد جواباً فورياً، فقلت بعد تردد :

- إلى الشام على الأغلب يا سيدي !

- إلى الشام ؟

بدا الطبيب منزعجاً هذه الليلة، فهو لم يتحدث مطلقاً تقريباً على المائدة. ثم إنه كان جالساً على أريكته بلا صوت ولا حركة. فقط رمقني بنظراته مطولاً، دون أن يقول شيئاً أثناء حادثة السيدة نونهال. لكنه هذه المرة اشترك في الحديث بانفعال لم يستطع إخفاءه :

- لماذا لا علم لي بذلك ؟

- الأمر جديد تماماً... وصل اليوم...

- هل بعد عودتنا من جولتنا ؟

t.me/yasmeenbook

ارتبكت وقلت :

- لا... قبل ذلك طبعاً... قبل ساعة من مجيئي إلى هنا...

وأردفت مخمناً ما سيسأله :

- خمنت أن ذلك سيزعجكم، فأجَّلت الحديث معكم إلى ما بعد.

فقال الباشا بتقطيبة ذات معنى :

- لست ظريفاً جداً يا شرف !

لكنه صحح فوراً :

- إني أسحب كلامي، لأنك أجَّلت إخباري أيضاً إلى ما بعد. أجل، ولو لم تخبرني سنيحة لما علمت بذلك.

فأجبت مبتسماً :

- هي أيضاً لم أحدثها بذلك مباشرة. إذ كنا نتكلم عن دروس عدنان....

وانسحبت إلى الخلف، ظناً مني أنه لم يبق ما يقال، فسألني الطبيب بلهجة عسكرية :

- توقف ! إلى أين ؟

- إلى الشام غالباً يا سيدي.

- لم تقل إلى " الشام " فقط، بل قلت " إلى الشام غالباً " ما معنى غالباً هذه؟

- لم أتذكره... أي اسم المكان الذي سأذهب إليه...

وببريق ساخر في عينيه، قال الطبيب :

- يا بني، لا بد أنك رددت اسم المكان الذي ستذهب إليه خمسمائة مرة على الأقل، بعد أن تسلمت الأمر... هات لنرى هذا الأمر.

مددت يدي إلى صدري بارتباك، كأن هناك أمراً في جيبي حقاً، ويريدون أن يأخذوه مني. وقلت :

t.me/yasmeenbook

- تركته في البيت يا سيدي.

فهم ذاك ما يريد أن يفهمه، وقال متأثراً :

- أهكذا ؟ ولم يضف شيئاً آخر.

بينما قال السيد نصرت :

- ليسهل الله طريقك. ما زلت شاباً. إن شاء الله تتولى وظائف ومهام في بلدان أجنبية أيضاً.

هذا القدر هو ما يمكن أن يقال في أمري. ثم بدأ أولئك بالحديث في مواضيع شتى من هنا وهناك. وصرخ الباشا مشيراً إلى الحاكي كأنه يريد أن يزيح ثقلاً ما :

- شغّلوا هذا اللعين !

انسحبت من الساحة ببطء، وعدت إلى مكاني السابق، ثم نزلت إلى الحديقة ببطء أيضاً، وتظاهرت بأنني أتجول بين الأشجار.

هذه كلها ألاعيب، ومن سينتبه لي ؟

بعد أن سرت في الطريق قليلاً تخطيت الأسوار، وانطلقت إلى الحقول ! دون أن أنظر إلى الأماكن التي أمر بها. بدأت تظهر أمامي عقد وعقبات وأشجار في بداية سيري بين الأراضي البور، وصارت الدغلات تتعلق بساقي. وشيئاً فشيئاً تكاثفت الأشجار، ودخلت في قلب ظلمة داكنة. لا شك مطلقاً في أن نوبتي ما زالت مستمرة. بل لقد اشتدّ الدوي المخنوق في أذنيّ. لكن السكون نفسه في ذهني، وكذلك الضياء المخيف نفسه... كنت أرى في مغادرتي المزرعة محطماً كل شيء فجأة، حتى دون أن أحاول رؤية سنيحة مرة أخيرة، تصرفاً طفولياً؛ لا شك أنه تصرف طفولي مضحك. لكنه كان ضرورياً، ولا بد منه. إذ لم يكن أمامي تصرف آخر أتصرفه. ولم أعد مستاء من أحد أو من أي شيء.

ظهر أمامي فجأة جدول معتم، يسيل بهدوء في قعر حفرة سيل عميقة وضيقة... رحت أتتبع حافته على أمل العثور على ممر في الأسفل. لكنه صار يعرض ويتسارع شيئاً فشيئاً. وعندما تقدمت قليلاً قلّت الأشجار،

t.me/yasmeenbook

وغطى الضياء سطح الماء، وفي قلب هذا الضياء لمحت شيئاً شبيهاً بالجسر. إنه جسر حجري متهدم، مدّوا بضعة ألواح خشبية فوق دعائمه التي ما زالت سليمة، وعلى جانبيه شبكوا بعض الأخشاب الأرفع ببعضها وأقاموا شيئاً يشبه الحواجز الجانبية. عبرت الجسر وأنا أتحسس مواطئ قدميّ. فظهر أمامي جدار واطئ وباب كبير، لا بد أنها مزرعة.

ولما سمعت نباح الكلاب من الداخل، عدت أدراجي حتى منتصف الجسر، لكني لم أستطع التقدم أكثر. كانت المياه تصدر أصواتاً مخنوقة وهي تسيل تحت دعائم الجسر. كنت أنظر إلى الأسفل إلى الأماكن التي تهدر فيها المياه وترغي وتزبد أكثر وأنا أتحسس أخشاب الحاجز بحذر وانتباه خشية السقوط.

*****

عندما فتحت عيني وجدت أنني في بيت الطبيب. كان رأسي وذراعي مضمدين. تكلمنا بهدوء في مواضيع شتى، كما في صباحات الليالي التي أمضيها ضيفاً عليه في بيته. ولما حاولت النهوض من سريري أحسست أن رجلي أيضاً مصابة، مع ذلك فقد تصرفت ببطء وروية. قال الطبيب ضاحكاً وهو يناولني المرآة :

- انظر كم اللحية لائقة بك.

لكنه لم يقل لي منذ كم يوماً أرقد مريضاً. وبدوري لم أسأله شيئاً.

حضر الباشا لعيادتي قبيل مساء ذلك اليوم. هو أيضاً تكلم في البدء عن الأحوال الجوية، لكنه عندما رآني طبيعياً وهادئاً سألني قائلاً :

- ماذا لديك من حوادث ؟

نظرت في وجهه دون أن أفهم شيئاً.

- من ناحية أخرى، ونظراً لأعمارنا فإن هذا يهمني كما يهم الطبيب.

t.me/yasmeenbook

عندها رأى الطبيب ضرورة التكلم، فسمى الحادثة قضاء سببها السكر،

وقال:

- أنت لست معتاداً على شرب الخمر... أجبروك، فشربت، رأيتك تشرب كثيراً، خرجت مسرعاً إلى الشارع، ولم تر موطئ قدميك... ومن يدري لعل ذلك الجسر الملعون بدا لك طريقاً مرصوفاً بالحصى، أم ماذا ؟

كان الطبيب المسكين يعلمني تماماً ما أقوله، لكي ينقذني من الحرج.

بدأت أكذب وأنا أحس بشيء من الانشراح :

- كنت مريضاً ذلك اليوم، لم تكن لدي طاقة للوقوف على قدمي، ومن يدري كم كانت درجة حرارتي ؟ وعندما شربت بعد الطعام ذلك الخليط من الشراب... وخوفاً من أن يحدث لي مكروه، وأزعج الضيوف، خرجت إلى الشارع...

قاطع عزيز باشا كلامي في منتصفه، وقال مستعجلاً :

- ثم طبعاً لم تعرف إلى أين ذهبت، وكم من المسافة قطعت بحالتك المريضة، وأين وطئت بقدميك... هذه كلها أمور معلومة... إنها حالة سكر... لكن شيئاً واحداً لم أفهمه....

كان قد دس يده في جيبه، فنهض الطبيب مذعوراً يحاول منعه :

- أرجوك... يا باشا.

لكن الباشا لم يهتم به، وقال :

- لا... لا، فلنحل هذه المسألة. السكر عال... شيء مرّ على رأسنا جميعاً... لكن ما هذا يا ترى، هل توضح لي ذلك ؟

كان بيده مغلف. وأمام محاولة الطبيب منعه بيده هذه المرة، قال :

- دعني، يجب أن يوضح شرف هذا لي...

كانت الأوراق التي أخرجها من المغلف صور سنيحة، وكنت قد سرقتها من ألبوم عدنان. والذين عثروا علي فوق حافة الجدول شبه مشرف

t.me/yasmeenbook

على الموت، ونقلوني على عربة تبن إلى كمليك، سلموا محفظتي إلى الشرطة، الذين سلموها للطبيب كما هي.

هل هناك إجابة يمكن أن أجيب بها ؟ كنت صامتاً مغمض العينين. فقال عزيز باشا بصوت لا يمكنني أن أنساه:

- في هذا الأمر ما فيه... أفهمني.

وعندما لم أحر جواباً، سألني سؤالاً آخر :

- أنت ليس لك أب يا شرف أليس كذلك ؟

فاستطعت أن أقول :

- لا يا سيدي... لقد توفوا جميعاً.

- للأسف، كنت أتمنى التحدث إليهم في بعض الأمور.

فقال الطبيب بانفعال غريب :

- أنا أبوه يا عزيز باشا... بإمكانك التحدث إلي.

لا شك أن الطبيب أعطى عزيز باشا الصور، وأنهما تحدثا مطولاً في كل شيء.

عندما قال الطبيب هذا، قال عزيز باشا :

- إذا كان الأمر كذلك، فأنت تطلب ابنتي لابنك، وأنا أعطيها باكياً ملتاعاً... وهكذا ينتهي هذا الأمر.

بهذه السهولة غير المتوقعة تم زواجي بسنيحة.

* * * * *

ليس للأشخاص السعداء تاريخ كالأمم السعيدة. إذ لا أذكر شيئاً يستحق الذكر في السنوات الأولى التي قضيتها مع سنيحة في " مزرعة نارلي ". ذهبنا في رحلة قصيرة إلى استانبول بعد زواجنا بفترة قصيرة. ربما كانت هذه الرحلة بمثابة رحلة شهر العسل. لكننا صادفنا الأمطار

t.me/yasmeenbook

المتواصلة، كما أن أقارب سنيحة لم يتركونا نرتاح. وفي هذه الأثناء تسلمنا رسالة من عزيز باشا. شكت سنيحة وقالت :

- أبي يتحدث عن كمليك، لكن المغلف يحمل خاتم بورصة. هذا يعني أنه هرب إلى بورصة فور سفرنا... المسكين يزداد رعونة مع مرور الزمن... لن يتعلم البقاء بلا رعاية.

كانت بورصة تعني لسنيحة مكاناً مثل مونت كارلو، وكان الباشا يعود من هناك دائماً غارقاً في الديون، متعباً منهكاً مريضاً من كثرة السهر. ولأن الأجواء كانت تعاند ولا تريد أن تنكشف، فقد عدنا إلى كمليك على أول باخرة، متفقين على أن نعود إلى استانبول في الصيف التالي مصطحبين الباشا معنا، وأن نقيم في فندق في الخليج لا يعثر عليه الأقارب بسهولة. لكننا لم نتمكن من الذهاب ثانية. كنا سعيدين، وكنا نردد هذا لبعضنا عدة مرات في اليوم.

أعطيت الحق لبعض ما يشاع عن المزرعة في الخارج، عندما تعرفت على وضعها عن كثب. فقد كانت المزرعة في وضع سيء، إضافة إلى أن الباشا كان غارقاً في ديون متداخلة. ولم يكن يبدو سبيل آخر غير بيع بعض الأراضي لتسديد هذه الديون.

اعتبرت إنجاز هذه الأمور كلها وظيفتي. وقلت للطبيب الذي ما زال أقرب صديق لي :

- لا يكفي وقف استمرار هذا الوضع، يجب أن أجعل هذا المكان مزرعة نموذجية. إني أسمع ما يقوله عني زملائي القدامى في الدائرة... لن أتأخر عن جعلهم يسلمون بأنني لست طفيلياً دخل إلى هنا ليعيش على حساب الآخرين.

ورحت أشرح له مشروعاتي الرائعة.

لم يستمع إلي الطبيب بشكل يمدني بالجرأة، وقال :

- هذا كله جميل... لنقل أنك نجحت في التعامل مع الأرض، ومع لصوصها... ولكن كيف ستنجح في التعامل مع الغول عزيز باشا ؟

t.me/yasmeenbook

كان ذلك الشتاء شديد البرودة، كثير العواصف والزوابع. وكنت أخرج إلى القرى والمزارع البعيدة والقريبة، كلما سنحت الفرصة وأعمل أبحاثاً. كما كنت أقرأ الكتب التي كدستها عندي حول الزراعة وتربية الحيوانات، في الأيام التي أظل فيها في البيت. ومن ناحية أخرى صرت محامياً عن عزيز باشا، بديلاً عن وكيل دعاويه المتوفى في بورصه منذ فترة قريبة. كان وكيل الدعاوي المتوفى رجلاً ملتحياً ذا عمامة من خريجي مكتب النواب القديم. بينما كنت محامياً شاباً يافعاً أظن أنني سأنجز حل الدعاوي التي خلّفها لي ذلك الوكيل بسهولة. لكني أدركت منذ الأيام الأولى أن هذه الدعاوي مثل شعر أجعد متشابك. فالمسائل الناجمة عن السندات والمقاولات التي وقّعها عزيز باشا دون أن يرى ضرورة لقراءتها، مسائل يستعصي حلها حتى على المحامين المتمرسين.

راح عزيز باشا يسب الأشخاص الذين أعطاهم سندات ووقّع معهم عقوداً، عندما جئت أشرح له هذه الأمور، بعد أن انشغلت بها أياماً في بورصة، وصار يهم بتمزيق الملاحظات التي دونتها، كلما تشوش ذهنه أثناء قراءتي لهذه الملاحظات، ثم بدأ ينتقدني قائلاً :

- ألم أقل لك يا بني... أنت ما زلت ولداً، يافعاً.... لماذا تكلف روحك الحلوة العناء والمشقة ؟

وعندما اقترحت استشارة محام آخر، أو توكيل محام جديد، وهو الأفضل، قال:

- حذار... فأولئك كلهم أسوأ من بعض... دع الأمر لي... أنا سأكون محامياً عن نفسي... وانظر ماذا سأقول في المحكمة لأولئك المدعين المخادعين.

وكثيراً ما كان الطبيب موجوداً أثناء حديثي مع عزيز باشا، وكان بضحكاته الخافتة في المقابل، يذكرني بقوله :

- هذا كله جميل، ولكن كيف ستنجح في التعامل مع الغول عزيز باشا ؟

t.me/yasmeenbook

وجدت عزيز باشا أول الواقفين في مواجهتي ليس في موضوع الدعاوي فقط، بل وحتى في خططي التي وضعتها لإصلاح المزرعة أيضاً. كان حمي يستمع إلي بانتباه في البداية، ثم يقول متعباً :

- هذه كلها خطط جميلة، جميلة ولكن... تبدو لي كأنها خيالات شاعرية... سنيحة شغّلي هذا الحاكي، ينالك ثواب.

ولكن إذا أردنا الحقيقة، فإن عزيز باشا كان محقاً هذه المرة أيضاً. فلو كنت بادرت إلى تنفيذ أفكاري، لوقعت المزرعة في مأزق حرج سيء. لأنني لم أتأخر كثيراً كي افهم أنا أيضاً أن أفكاري كانت خيالات شاعرية. لكن معاناتي لم تذهب سدى، بل كان لها دور كبير في جملة " نحن سعداء " التي كنا نكررها دائماً أنا وسنيحة، فقد كنا نقضي قسماً كبيراً من أوقاتنا بالانشغال بها. ثم إن سنيحة كانت تقف دائماً في صفي في مناقشاتي مع أبيها، وكانت تراني محقاً. وفي الأيام التي أمضيتها بعيداً عنها في بورصة، كنت في الأحيان التي أتخلص فيها من العمل، أحس بنشوة الشوق إلى سنيحة، نفسها التي كنت أحسها أيام ظننت أنني فقدتها. فقد تزوجنا عن حب، هذا مؤكد. فوقوف عزيز باشا عند رأس سريري في إحدى الأمسيات وتزويجي ابنته ببساطة كمن يناول مريضاً كأس ماء، لم يكن أمراً بسيطاً كما يبدو. أهي الرحمة والإشفاق على شاب أقدم على الانتحار لأنه يحب ابنته؟ هذا النوع من الإشفاق يمكن أن يصادف في الروايات الخيالية فقط. لقد تم هنا التفكير بكل شيء بروية، وتم تهيئة كل شيء بحسابات دقيقة، أيام كنت أرقد فاقد الوعي. لا شك مطلقاً أن هذا الرجل الغريب نفسه أحبني قبل أن تحبني سنيحة. فالناس الذين عرفهم في محيطه وعايشهم منذ مدة طويلة، من رفاق العمل، وأصدقاء القمار والغواية، وأقاربه، كانوا يبدون في نقاط كثيرة نماذج لصنف معين من الناس يحملون سمة مشتركة، كأنهم خرجوا من قالب واحد، رغم التباين اللامحدود في وجوههم وطباعهم، نفر عزيز باشا من هؤلاء على مدى عمره الطويل، كما لم يستطع الابتعاد والتخلي عنهم، بكلمة واحدة ملهم وسئم منهم. ولقد أثر

t.me/yasmeenbook

فيه ان يرى في بيته يوما ما، نموذجا مختلفا كلياً، ووجهاً جديداً لا يشبه أولئك.

وكما يفضلون راعي جبل على رجل دولة كبير عندما يغضبون عليه، كذلك بدا له مظهري الجديد خفيف الظل، يريحه فترة من خلافاته مع الآخرين. فترة ! لأنه لو مرت بضعة أسابيع أو بضعة أشهر كان سيرى ظهور الأذنين نفسهما والعينين نفسهما والأنف نفسه، من تحت قناع ذلك المظهر المختلف، لكن الأحداث باغتتنا وأمسكت بنا جميعاً خلال تلك الفترة بذاتها. غير أن تلقين وتأثير الرجل الغريب الآخر، طبيبي العجوز، كان له دور كبير أيضاً في ذلك. فحبُّ الطبيب لي، جعله ينقل مشاعره نحوي للباشا، وعندما رأى الخطر المفاجئ يحدق بي، جاهد لكي يبعدني بسرعة عن هذا المحيط، كما لم يتوقف عن إدخالي في عيني عزيز باشا، وبهذه المناسبة أيضاً فهمت سبب تأثير الطبيب الكبير على عزيز باشا. إذ لم يكن مجرد تشابههما في بعض الجوانب، هو سر تقاربهما. بل كان السبب اختيار الطبيب الرجل الفريد الذي لا يشبه أحداً، هذه البيئة الجديدة والمختلفة والمريحة، كما اختارها الباشا،

وسبب آخر : أن عزيز باشا كان يرى في ابنته ملجأه الآمن الأخير في مجابهة حياته التعيسة التي يشكو منها ولا يستطيع التغلب عليها بشكل من الأشكال، والتي غرق فيها بالديون حتى حلقه بسبب القمار وغيره من أنواع اللهو السرية المنهكة المذلة.

لم يكن غبياً لا يدرك أنهم لن يتركوا له بنتاً دخلت طور الزواج، مدة طويلة، كما لم يكن أنانياً يطالب بذلك. وإن جملة " بضع سنوات على الأقل " التي كانت تدور على لسانه في معرض الحديث عن عيش سنيحة معه، كانت تدل على ذلك أيضاً. بضع سنوات ! كان يبدو من الحزن الواضح في عينيه، وهو يردد هذه الجملة، أنه يفكر بأنه لن يعيش طويلاً، وكان يُستشف أن جملة بضع سنوات كانت تعني بالنسبة له " دائماً ".

في تلك الأيام بالضبط قيض الله لسنيحة قسمة براقة سيَعدُّ رفضها جنوناً. لكن إثر هذا العرض المظلم والمريب في بعض جوانبه، استطاع

t.me/yasmeenbook

الطبيب أن يمسك بالباشا في أضعف نقطة فيه، في هذا الظرف الدقيق، وأن يلمّع في عينيه خيالاً براقاً، كالاحتفاظ بابنته عنده حتى النهاية. وفيما كنت أتألق وألمع لمعان حزمة متأججة من القش الجاف، لاحظ استيقاظ ميل لدى سنيحة نحوي.

وحسبما علمته فيما بعد، فإن الطبيب سبر أغوار سنيحة بألاعيب تشبه ألاعيبه معي، وأوقع هذه الطفلة البسيطة في أفخاخ متقنة، بمظهره النقي الصافي، وعثر على ما يبحث عنه بعينيه اللتين أعرف كيف تلمعان تحت رموشه البيضاء الطويلة.

كما لم يتوان عن أن يعالج بيده الخبيرة ويفتح الغطاء الذي يغطي بعض المشاعر وبعض الجروح الخفية التي كانت غامضة حتى لسنيحة نفسها.

إذن، كما قلت، لقد تم تهيئة كل شيء، مسبقاً بحسابات دقيقة. حيث نشرت الصور المتجعدة، التي أخرجت من محفظتي المبللة، على المنضدة، وجرت حولها مناقشات جادة مثل مفاوضات أركان حرب مطولة. وكانت مفاجأة الباشا لي بالبشرى تكرماً وتفضلاً منه بحسب رأيه.

والأغرب أنه بعد أن سكن تأثير مفاجأة ذلك اليوم قليلاً، عمد الباشا إلى الجزء الثاني من مفاجأته، فقال كأنه يقول شيئاً عادياً للغاية :

- الأولاد ينتظرون في العربة، إنهم يطلبون الإذن لعيادة معلمهم المريض. وبعد قليل دخل الأولاد إلى الغرفة عدنان في المقدمة وسنيحة خلفه، وبأيديهم أزهار مقطوفة من المزرعة. هي أيضاً مثل أخيها، صافحتني ببساطة تلميذة بريئة، وسألت عن صحتي. ورغم شدة انفعالي، لاحظت كيف وقف الباشا والطبيب في جانب يستمتعان بمشاهدة اللعبة التي لعباها علينا، أو بالأحرى التي جعلانا نلعبها. وعلمت فيما بعد أيضاً أن هذه اللعبة جرت على سنيحة أيضاً كما جرت علي. فقد أقسمت سنيحة أن أباها صوّر لها هذه الزيارة على أنها زيارة مجاملة واجبة، أجبرها عليها، وأخفى عنها أنه فتح أو سيفتح معي الموضوع ذلك اليوم. واحمرت

t.me/yasmeenbook

وجنتاها واحتدت وهي تشرح لي ذلك بعد زواجنا قائلة : "هل كنت لآتي مطلقاً لو كنت أعلم أنني أُعطيت لك ؟ "

الطبع الغريب في سنيحة أنها مع اعترافها بزواجها بي عن حب، كانت تحجم وتخجل من أن تصرح بذلك بفمها. حتى بعد زواجنا بفترة طويلة، عندما لم يبق بيننا أي شيء يمكن الخجل منه، لم تكن تجيب عندما أسألها عن ذلك، وكانت عندما ألح عليها كثيراً ترفع كتفيها وحاجبيها وتقول بضحكة فاتنة : " ما أدراني، لا بد أنني أعجبت بك ! " ولم تنطق بكلمة الحب لسنوات طويلة.

كنت في الفترات الأولى من زواجنا أود أن نتحدث دائماً عن الحب، كما في الروايات. وكنت أفعل ما بوسعي كي أشجعها على ذلك. لكن هذا لم يحدث أبداً. بل إنني حتى اليوم لا أعرف تماماً متى وكيف بدأت تحبني عندما كنا ندرس في المكتبة. وتسلّيت وأنا أتخيل خيالات أنسجها من بعض كلامها، على غرار ((عندما قرأت سقوط ضوء القمر على بريهان، ولمعان وجهها كلوحة فضية، ودون أن يخطر ببالي شيء، أنت خجلت كفتاة صغيرة وطأطأت برأسك... حينها قلت : سيكون الزواج بشرف بيك أمراً جميلاً على الأغلب، ولكن والله ليس من أجل نفسي!" وكما قلت لم أستطع أن أجعلها تعترف بذلك صراحة. ولكن أغلب الظن أن السكوت عن بعض الأشياء، وترك بعض الأسرار، أو كثير من الأسرار بيننا صار أفضل.

* * * * *

ربما، لذلك كنت أراها دائماً عند كل عودة لي من بورصة كما كانت في أول يوم من أيام زواجنا. كل شيء فيها غريب وجديد، من استقبالها لي عند الباب، حتى مظهرها، ووقفتها. كانت هي نفسها سنيحة التي اقتربت منها رويداً رويدا والرعشات تغمرني ليلة العرس. وكان هذا شيئاً آخر مختلفاً عن ارتماء الزوجين في أحضان بعضهما بعد

t.me/yasmeenbook

فراقات طويلة. وبالحذر الذي سرى منها إلي ما عدت أجرؤ على لمسها بيدي.

كنا ننظر إلى بعض كغريبين حذرين حذر ليلة العرس. وحين كنا نتحدث في المسائل الزوجية، وحتى عند بحث آدق المسائل المادية، كنت أكتشف شيئاً فشيئاً ومن جديد طباعها الخاصة التي فقدتها بعد أن حفظتها غيباً بتكرار رؤيتي لها في الحياة اليومية. من تصلب جسدها عندما أمسك بيدها، وتراجعها بهدوء وروية، وانعقاد حاجبيها، ونظر عينيها بإصرار إلى أي شيء آخر غيري، والملامح المختلفة، والتغضن الخفي في خدها الأيمن، وحتى ارتعاشات شفتيها، التي كنت أراها عندما أبدأ بالنظر في وجهها عن كثب حين تغض بصرها تهرباً من عيني... وهكذا كنت في ليلة كل عودة لي أضم بين ذراعي سنيحة ليلة العرس نفسها بخجلها ونكهتها .

لم يعد هناك سبب للشكوى من التعب وضيق الوقت، بعد انتهاء الدعاوي ومشاكل المزرعة. فصرنا لبعضنا كلياً طوال الأيام والليالي. وصرنا نكرر لبعض أغنية " نحن سعداء " أكثر من أي وقت مضى. لكن هذا التكرار المتوالي كان هو ما يثير الشك.

بدأ يظهر علي فتور وتعب لا سبب له، بعد أن عادت المزرعة إلى سابق حالتها، ولم يبق لنا من هم سوى انتظار الزبون الذي سيزيح عن كاهلنا بعض الأراضي غير المنتجة أصلاً.

عزونا ذلك في البداية إلى آن التعب السابق المتراكم يظهر نفسه الآن شيئاً فشيئاً. ثم خطر بالبال أنني أعاني من مرض بسيط. حتى أن سنيحة كانت تريد أن أجري فحوصاً طبية عامة في بورصه أو في استانبول. لكني أخبرتها بجرأة بما أفكر فيه قائلاً : " هو مرض... لكنه ليس مرضاً يكشف عنه طبيب، أغلب الظن أنه بدء انتكاس مرض قديم أعانيه، مثل حمّى قديمة... "

أجلست سنيحة أمامي كما كنا نفعل في غرفة المكتبة، وشرحت لها بجدية من يشرح درساً، أنه لا يكفي لإشباع الرجل أن يكون اسعد

t.me/yasmeenbook

الناس. فالرجل بحاجة إلى أن يقوم بأعمال يظهر فيها قوته وذكاءه. عملت حتى الآن على الأقل على إصلاح شيء مما فسد من أعمال المزرعة، لكن النتيجة معروفة اليوم... فلا شيء يضني ويؤلم الرجل كما يؤلمه أن يرى نفسه صغيراً يتجول هازّاً يديه بلا عمل. خاصة عند زوجته التي يحبها كثيراً... الشكر لله أننا ما زلنا شابين يافعين جداً... وأمامنا متسع كبير من الوقت.

ردّدت هذا بنشوة صوتية، لكي أقنع نفسي أيضاً قليلاً، ثم قلت لها :

- هيا ابدئي أنت أيضاً بدرسك.

ورفعتها في الهواء وأمسكت بأسناني بحلمة إحدى أذنيها، واحتضنتها وذهبت بها إلى حاكي المزرعة المخلص.

كان درس سنيحة هو تعليمي الفالس. وفيما كانت في البدايات تلهو وتتسلى بلهاثي ودوار رأسي، صرت الآن أسبقها وأطوقها وأدور بها كالزوبعة، إلى أن ترتمي في أحضاني لاهثة متقطعة الأنفاس.

وكان الباشا يدخل علينا أحياناً وهي تتوسل إلي، وقد بدأت تغيب عن الوعي، قائلة : " لا تفعل أرجوك ! " فيمازحنا قائلاً : " ماذا تفعل بابنتي أيها الجلاد ؟! اعزفي يا حبيبتي، اعزفي يا جميلتي، اعزفي يا ملاكي اعزفي... عرفت منذ ذلك الوقت أن الدرس الذي يبدأ هكذا لا خير منه ! " ثم يحتد لأننا توقفنا ويقول : "هيا... هيا... أتما شقاوتكما طالما بدأتما !... " ويغادرنا وهو يكمل الشعر الذي بدأه بصوت راض وحزين أيضاً :

" كعصفور جريح يتخبط في قفصه

ينطلق هذا الصياح من فؤاد ذلك الغريب

بالله هذه اليد هي التي اقتلعت الروح من مكانها. "

لم يستطع كل هذا أن يمنع ازدياد ظهور علامات التعب والملل علي شيئاً فشيئاً. لكن الأحداث غيرت أشكالها فجأة في وقت غير متوقع مطلقاً. ففي ليل صيف بدأت أيامه تطول بحيث صرنا نفكر كيف

t.me/yasmeenbook

سنمضيها، كان الباشا في الشرفة يقرأ على ضوء المصباح نفسه الصحف الواردة حديثاً من استانبول، بينما كان الطبيب منهمكاً في حديث مع سنيحة في إحدى الزوايا، أما أنا فكنت أقطع قطع الخشب بسكيني أمام الشرفة، وإذ بالباشا يصيح فجأة :

- أوه... تأخذون البوسنة والهرسك أليس كذلك ؟

ثم أوضح بانفعال وفرح غريبين على وجهه :

- أنا لا أحبذ الاغتيالات السياسية، لكن هذا أعجبني كثيراً. فقد اقدم احد الشبان المتشردين في البوسنة يدعى برنجسيب على اغتيال ولي عهد النمسا فرنسوا فرديناند...

ثم راح يقرأ الخبر مطولاً. أخيراً انتقل إلى حكايات اغتيالات سياسية أخرى، ثم انتقل إلى دراما مانوكيان، ونسي الموضوع.

لكن أصداء الحادثة راحت تكبر يوماً فيوماً، وتأخذ في الصحف أشكالاً وأبعادا غريبة. حتى إنه كان هناك من يتحدث عن خطر نشوب حرب عالمية... لدرجة أن الباشا غير من طبيعة كلامه، بعد أن كان في البدء يهزأ ويتهكم وصار يقول : " خطر هذا ببالي عندما قرأت الخبر ! " لكنه مع ذلك كان يرى أنه من غير الممكن أن يذبح الأوروبيون جميعاً بعضهم بعضاً بسبب رصاصة متشرد، ويقول : " لست من لن يفرح كثيراً إذا حدث شيء من هذا، هل دمنا فقط حلال " مباح " ؟ فليأكل بعضهم بعضاً، ولنقف نحن في المقابل ونتفرج عليهم قليلاً ! "

غمرتنا الدهشة عندما ظهر الطبيب أمامنا فجأة فيما كنا مجتمعين في الشرفة مساء، وقد ارتدى لباس عقيد غيّره وجعله يبدو شخصاً آخر تماماً، وكان قد ذهب إلى استانبول ثم إلى بورصه في عمل يستغرق بضعة أيام. صار الباشا يصرخ " ما هذه الحالة يا هذا ؟ ". فاستل الطبيب سيفه، ووقف أمام الباشا وأدى تحية هزلية كما في الأوبريتات، وقال " العقيد الطبيب العسكري المحترف جميل يقدم احترامه وتعظيمه لسيادة الفريق أول عزيز باشا " ثم أعاد السيف إلى غمده، ونزعه كلياً عن وسطه وقال : " صرنا عسكريين مجدداً." وجلس.

t.me/yasmeenbook

ذاك أيضاً لم يكن يعرف شيئاً كثيراً، إذ كان يقول : " ها نحن أيضاً نستعرض استعراضاً ما ! " وينتقل للحديث عن أمور أخرى. هذا التغيير جعل الطبيب شاباً فعلاً. أضحكنا وهو يروي لنا حكايات عن استانبول. وكان الباشا يقول " كلمة استعراض مناسبة جداً !" وحكايات النفير العام في أوروبا كلها عبارة عن استعراضات... هذا مؤكد... ولن نقف نحن هكذا أمام هؤلاء... طبعاً سيعمل أنور أيضاً استعراضاً ما تجاه هؤلاء... الأمير ابن السلطان الجديد، سرح الضباط الممتازين الذين لم يتجاوزوا الخامسة والأربعين بدعوى أنهم مسنون، والآن سوف يجمعهم ويلبسهم مثلك ويصفّهم أمامه، ويسخر منهم... "

لا أعرف بماذا كنا مشغولين في المزرعة في تلك الفترة، لذلك كنا نطمئن العاملين والقرويين الذين يسألوننا عما يسمعونه من الخارج من روايات، ورغم أن الطبيب التحق بقطعته في بورصه منذ الآن، فقد كنا نقول لهم : " لا يوجد شيء... لا تقلقوا ! " لكننا لم نكن مقتنعين بما نقوله. إلى أن سمعت أثناء مروري بعربة سليمان داخل مدينة كمليك عند ظهيرة أحد الأيام، حارساً بطبلة يصرخ منادياً : " الدولة أعلنت النفير العام ! "...

النفير العام ! يمكن أن يكون هذا أيضاً استعراضاً ما كما قال حمي. لكنني سأشترك في هذا الاستعراض لا محالة. تخيّل نفسي باللباس العسكري، ولد لدي انفعالاً غريباً وإن كان مزاحاً. طلبت من سليمان أن يسوق العربة بسرعة اكبر، كي أوصل الخبر إلى الباشا بأسرع ما يمكن. كان سليمان صامتاً يفكر هذه المرة، وهو الذي اعتاد أن يغني أثناء قيادته العربة، ولم يغير عادته بعد أن صرت صهر الباشا، قال بغتة بعد صمت دون أن أسأله شيئاً :

- سوف نذهب يا سيدي.

سيق سليمان إلى الخدمة العسكرية عدة مرات، وأصيب بعاهة في رجله في إحدى هذه المرات. قلت :

- ألست معوقاً ؟

t.me/yasmeenbook

ضحك وقال :

- هل يسألون عن الإعاقة في مثل هذه الأوقات الحرجة ؟ سوف نذهب يا سيدي.

ذاك لم يكن يعرف كلمة " استعراض " وكان يأخذ الأمور بجدية، والغريب أنني جاريته هذه المرة؛ وفكرت طوال الطريق بأشياء جديّة، وجديّة جداً. وفي المزرعة تلقت سنيحة الخبر بجدية مقابل عدم اهتمام الباشا به كثيراً. لم يكن من عادتها أن تداعبني وتغازلني ما لم أبدأ أنا بذلك، لكنها هذه المرة أمسكت بذراعي واحتضنتني تماماً عندما بقينا وحيدين، كانت مرتبكة بل وحتى خائفة. سرني خوف سنيحة هذا، لذلك قلت كلاماً كأنني سأذهب إلى الحرب وأقاتل فعلاً. فضغطت علي بقوة بين ذراعيها هذه المرة؛ فاصطنعت الجدية أكثر وأضفت كلاماً يوحي باحتمال الموت.

كانت سنيحة تبدو ببنية جسمها امرأة كاملة متكاملة، وكان مظهرها هذا يزداد هيبة عندما ترتدي الملاءة. حتى أنني كنت أضحك وأنا أتذكر معاملتي لها معاملة سيدة مسنة ذات قدر عند لقائنا الأول. لكنها كانت تصغر بكل مقاييس جسمها وتصبح طفلة فعلاً عندما نكون متقابلين وجهاً لوجه. ولقد رأيتها ذلك اليوم أكثر طفولة وهي تعصرني بين ذراعيها دون خجل. وكانت تلك ليلة عمل فيها ذهني بفعالية رائعة. وبعد أن أنمت سنيحة خرجت إلى الخارج، ورحت أدخن السجائر التي نسيها عزيز باشا على منضدة الشرفة، وأفكر. أجل كان عقلي يؤكد أن هذا لن يحدث بشكل جدي. لكنني لم أتمكن من منع نفسي من الوقوع في تخيلات وتصورات، كما نفعل مع ورقة اليانصيب واحتمال فوزها وربحها بنسبة واحد بالمائة. فتصورت نفسي مرتدياً ثياباً عسكرية حاملاً بندقيتي على كتفي، أسير بين جموع غفيرة، فأتسلق التلال، وأكمن بين قصب الوديان، ومع معرفتي بحقيقة الحرب قليلاً أو كثيراً، لم أستطع منع نفسي من تخيل حروب بين جيشين جرارين في ميادين فسيحة واسعة الآفاق. ولأن هذه الحروب لا تعب ولا خطورة فيها فقد كنت أهجم بلا

t.me/yasmeenbook

هوادة – كوحش أسطوري – على كل الجهات، وعلى أخطر جهات ساحة الحرب الواسعة تلك...

وجه السماء يكاد لا يرى وقد غطّاه وابل من شظايا القنابل التي تسقط كالبرد... لاشك أن قدرة خفية كبيرة تشبه القدرة التي تسير النجوم في السموات دون أن تصطدم ببعض، سوف تنظم تساقط قطع النيران هذه حولي دون أن تصيبني. أخيراً حدث هذا أيضاً ولكن في عملية فدائية تطوعت للقيام بها في مجابهة وجهاً لوجه... تعاركت مع خصومي، وجرحت، وبقيت مستمراً رغم أني رأيت دمائي تسيل. بعد ذلك، ورغم عدم وجود شاهد على بطولتي، بدت سنيحة تعرف كل هذا كأنها رأته، وهي تبكي وتمرر سترتي المثقبة على صدر ثيابها السوداء. فقد افترقنا فراقاً لن يرى فيه أحدنا الآخر مرة أخرى. وعندما عدت إلى غرفة نومنا بعد كل هذه الخيالات، قبلت سنيحة الغافية قبلة خفيفة؛ لكنها لم تنتبه لاعتيادها على مداعباتي هذه.

لكن هذا الخيال الذي وضعت نفسي في خضمه بسرعة قصوى، صار قاعدة لخيال أكثر جدية، لمثل أعلى جديد يشبه مثلي الذي أصبو إليه في الحياة كرجل أعمال. كنت في اليوم التالي شخصاً آخر تماماً، عندما استيقظت وتهيأت للذهاب لمراجعة شعبة التجنيد شخصاً ربما ليس بطلاً، لكنه رجل جاهز لتأدية واجبه بهمة وعزيمة كأشرف واجب إنساني مهما كان ثقيلاً ومتعباً ... وستكون طمأنينتي كبيرة جداً عندما سأعود أخيراً يوماً ما إلى حياة الكسل والتسكع هنا بعد أن أكون قد أظهرت مدى قدرتي. كنت إنساناً آخر مختلفاً جداً، عندما ذهبت ذلك اليوم إلى شعبة التجنيد ، ولم أقبل وساطة كاتب عسكري من معارفي، ووقفت في صف الانتظار بين الفلاحين.

*****

t.me/yasmeenbook

لكن هي ذي الحقيقة مقابل تلك الخيالات.... فبعد عدة أيام كنت في بورصة، أقف في الممر أمام غرفة لجنة فحص خريجي الدراسات العليا الذين سيرسلون إلى مدرسة الضباط الاحتياط في الكلية العسكرية. حان دوري فنادوني؛ سلمت على الأطباء الثلاثة الجالسين عند رأس المنضدة. كان أحدهم، الجالس في الوسط، طبيبي. لكننا صرنا الآن لا يعرف أحدنا الآخر. سأل عن كنيتي بصوت قاس، فأجبته. ثم سألني بضع أسئلة أخرى، بصوت قاس وغريب، عن أمور شخصية يعرفها جيداً.... لكن أحد أسئلته أجبرني على التكلم عن مرض قديم أصابني وأعطب كليتي عطباً بسيطاً. ثم كانت المعاينة... أخيراً قال : " اخرج ! ". لماذا هذا الجفاء، بل لماذا هذه الصرامة الزائدة عن اللزوم ؟... طبعاً العسكرية... لا بد أن تكون هكذا... ولكن لماذا يبعد عينيه عني دائماً في غمار تلك القسوة، ويمسح قطرات العرق التي تتشكل على جبينه دون توقف ولا تجف ابداً، ثم لماذا حالة الخجل هذه التي تبدو عليه؟

كان سليمان قد قال لي :

- هل يهتمون ويسألون عن الإعاقة في مثل هذه الأوقات الحرجة ؟ سوف نذهب يا سيدي.

لكنهم سألوا عن إعاقتي، وعرفوها دون أن أقول لهم. سوف لن أذهب. صحيح أنني لم أبعد عن الجيش تماماً، لكنني لن أتمكن من الذهاب إلى مدرسة الضباط الاحتياط، لأنني معطوب. ولكن ما هو هذا العطب ؟ لم افهم شيئاً من المصطلحات الطبية القصيرة جداً المكتوبة في التقرير الطبي بخط غير مقروء. وفيما بعد لم أسأل الطبيب عن ذلك، ولا هو كلمني بذلك. ولم يكن ذلك مهماً جداً، لأنني لم أُعف من الخدمة العسكرية، فرزت فقط إلى الخدمات الثابتة.

وهل هناك في العسكرية خدمة كبيرة وخدمة صغيرة ؟

للخدمات الثابتة أشكال متعددة. كذلك كان أبسطها من نصيبي. فقد صرت كاتباً في شعبة التجنيد في بورصه. وكانت معاملات الذاهبين إلى جنق قلعة كلها تمر من بين يدي.

* * * * *

t.me/yasmeenbook

لم تحدث الحرب تغييراً كبيراً في حياتنا. بدأت أزقة بورصه تخلو من المارة، وأغلب الدكاكين في الأسواق لا تفتح، والدكاكين المفتوحة تغلق قبل العصر بزمن طويل بسبب الركود. كانت الأزقة تنتعش قليلاً أيام نزول قوافل العساكر الجدد من الطرقات الخلفية. ولم يكن هؤلاء قد ارتدوا الملابس العسكرية بعد، ولأن قسماً منهم كانت ترافقهم نساء قرويات يحملن السّلال والصرر، كما يرافقهم رجال مسنّون وأطفال، فقد كانت ساحات الأسواق تشبه قليلاً ساحات الأسواق القديمة. ثم كان هؤلاء يتفرقون ويتوزعون على ساحات الجوامع التي سيكونون ضيوفاً عليها بضعة أيام، وكذلك بشكل اكبر على أماكن وجود شعبنا العسكرية. وبعد نشوب حرب جنق قلعه بدأت تصل مقابل الذاهبين قوافل الجرحى بين الحين والآخر. عدا هؤلاء كان يخيم على المدينة سكون وركود يشبه سكون ما قبل الغروب في رمضان... وحدها كانت المقاهي تكتظ تماماً بالزبائن في الليالي. أما أنا فقد أقمت في فندق مدام بوروت في مكان قريب من " قابليجا الكبير " بناء على إصرار حمي. كان هذا الفندق بنزلائه الدائمين من الوجهاء أشبه بالنزل، يفد إليه بين الفينة والفينة ضيوف مهمون من استانبول. ولم يكن وجودي هنا ككاتب عسكري وصهر عزيز باشا، بلا جدوى. إذ لم يكن يعرف حتى ماذا أكون بثيابي الأنيقة النظيفة عند المساء. كما كان يمر على الفندق بعض القادة العسكريين أحياناً. وكان الذين لا يعرفونني نهاراً في لباسي العسكري، وهيئتي الغليظة الخشنة، يبدون كأنهم لا يعرفونني بهيئتي هذه ليلاً. فكنا نتصادق بكل معنى الكلمة. إذ لم أعد متحفظاً منطوياً على نفسي كالسابق.

كان عزيز باشا يهرب إلى بورصه أحياناً ليتفقدني وليرى الطبيب، متذرعاً بذريعة مداواة مرضه بالروماتيزم في قابليجا. وكان طبعاً يقيم عند مدام بوروت. ولأنه كان هنا تحت كفالتي لم تكن سنيحة تتكلم كثيراً. وكان يرسلني أحيانا إلى كمليك في إجازة لبضعة أيام ليغطي على تأخره. وإذا قلت " يرسلني "، فطبعاً ليس هو، بل رؤسائي... ولكن كما حدث في معاينتي وفرزي إلى خدمة غير مسلحة، كذلك كانت

t.me/yasmeenbook

الإجازات تأتي من تلقائها ولا يبقى أي داع لأن أطلب الإجازة بلساني. حتى أن الشعبة كانت تحيل بعض الأعمال الرسمية إلى كمليك. وكنت أضطر للبقاء فيها ثلاثة أو خمسة أيام وأكثر.

في تلك الأوقات أيضاً كنت أرى في المزرعة سنيحة ليلة العرس بجدّتها وهيئتها الجديدة علي، وهي تعض بأسنانها البيضاء على شفتها السفلى حياء، وتبتسم وهي تحني رأسها إلى الأمام، كما في أيام الدعاوي في بورصه. ثم كانت تسألني عن الأحوال. لم تكن الأخبار التي ترد إلى المزرعة عن الحرب وعن بورصه أخباراً جيدة. وكنت أطمئنها بالقول إن هذه الأخبار مبالغ فيها. ولكن مهما كان فالحرب حرب، ولا بد أن تفرز بعض المضايقات. كانوا يتحدثون عن جوع الأهالي، لا يمكن أن يقال عن هذا إنه غير صحيح، ولكن متى كان أهالي الأحياء الفقيرة والقرى الفقيرة إلاّ جائعين ؟ كان الموظفون وأصحاب الدخل الشهري يعانون بعض الضيق، لكنهم كانوا يتدبرون أمورهم، ويوجدون حلاً لمسألة معيشتهم. مقابل ذلك لم تكن الأخبار المفرحة معدومة، فالحرب في جنق قلعه تدور بشكل جيد. وكنا في شعب التجنيد نصل الليل بالنهار لكي نرسل إلى هناك أكبر قدر ممكن من العساكر.

أما فيما يخص الباشا، فلا أستطيع أن أحدث سنيحة بكل ما أعرفه عنه. فهذا سيعني بيع حمي المسكين بلا جدوى. كما أن هذا القدر من الاستقامة لن يفيد إلاّ في إزعاج سنيحة دون سبب، أضف إلى أنه سيهدم العلاقة بيني وبين عزيز باشا. فذاك صار الآن طفلاً، وسوف يصل إلى غايته مهما فعلنا. لذلك كنت أقول إن أموره ومداواته من مرض الروماتيزم تسير سيراً حسناً. وأعزو البقية إلى كونها إشاعات.

رغم سوء الأخبار الواردة، كان كل شيء في المزرعة وفي وجه السماء جميلاً للغاية وهادئاً في تلك الأيام، وكنا سعداء حتى أننا لم نعد نرى من الضروري أن نقول بأننا سعداء. لذلك كانت سنيحة تقتنع على الفور بكل ما أقوله، ولم نعد نفكر بأحد آخر غيرنا.

بلغت حرارة حبنا ذروتها في تلك الأيام.

t.me/yasmeenbook

توقفت الأعمال نهائياً في المزرعة، وصارت الآن أرضاً مجدبة لا فائدة منها، ببضعة عمال عجائز وأطفال لم يلتحقوا بالعسكرية. وكنا نتجول فيها على هوانا كعاشقين هاربين من بيتيهما دون علم أهلهما، فينام أحدنا على ركبة الآخر على ضفاف الجداول والسواقي، ونختبئ تحت الأشجار المخيمة علينا بفروعها المتدلية حتى الأرض.

مشهد فراق ووداع أمام الباب أيضاً وكأنني ذاهب إلى الجبهة... ولأن عربة سليمان غير موجودة، صرت أمتطي حصاني، وكثيراً ما كانت تمسك بلجام الحصان وتسير بجانبه مسافة طويلة كي تودعني، ثم تقول "فلأعد من هنا". وفي آخر مرة عندما نزلت عن حصاني لأقبلها قالت " لا يجوز، لا تفعل إكراماً لله، سوف يروننا!" وراحت تحاول منعي بيديها.

لكن لم يغب عن ناظري التفاتها إلى الخلف مراراً وتكراراً، وكانت تشغلني بالحديث إذا ما رأت أحدهم قادماً، حتى يمر القادم ويعبر. كانت تعرف أن أحداً لن يرانا، ولكن هل تتخلى المعتادة عن عادتها ؟ ولأنني أعرف أن تلك اللحظة هي أضعف لحظاتها. كنت أقول لها " هيا قولي مرة إنك تحبينني ". لكنها كانت تعاند. وفي إحدى المرات احتلت حيلة وقلت : " هناك احتمال كبير في أن نرسل إلى جنق قلعه بأمر مفاجئ في ليلة ما. أنت تعرفين ما معنى هذا... هيا لا تعاندي... إنها كلمة صغيرة... قولي " أحبك " لأسمع صوتك يرددها مرة.". أدركت فوراً أنها حيلة، فلم تصدق. لكن الحرب حرب، ولا أحد يعرف ماذا سيحدث من اليوم حتى الغد. وبعينين مغرورقتين، وبعضة على شفتها السفلى بحياء لا معنى له قالت " حسناً، هو كذلك!" واستدارت فوراً إلى الخلف وبدأت تركض كطفلة.

تعلمت في المزرعة ركوب الخيل أيضاً بمهارة، كأنني أرقص الفالس. لذلك كنت أسافر بين بورصه وكمليك ممتطياً صهوة الحصان. وكانت هذه الفروسية خاصة أثناء العودة من كمليك تجعلني أتخيل أنني عسكري محارب في الجبهة، وتنسيني منضدة الكاتب وكرسيه في شعبة التجنيد. وكنت أتسلى طوال الطريق بحكايات كحكاية إرسالنا

t.me/yasmeenbook

إلى الجبهة التي رويتها لسنيحة، وكان هذا يدوم حتى اقترابي من محطة دمير طاش. حيث أرمي نفسي في أجواء حياتي الجديدة في بورصه.

كان عزيز باشا يراوغ ويتملص في الليالي بالتحدث عن معارفه القدامى، وسرد روايات عنهم لا أساس ولا صحة لها. وحين عاتبته فجأة في إحدى الأمسيات، احتد وقال : " كانت المصيبة واحدة فصارت اثنتين. انظر إلي يا هذا! أنا لا أخاف من تلك القزمة شبيهة أمها (هكذا كان الباشا يلقبها عندما يغضب منها) ولا أخاف من أحد!... يعني هل سأخاف منك الآن؟" فأجبته ضاحكاً " أرجوك يا سيدي، أستغفر الله، وهل هذا حدِّي ؟".

قال منذراً إياي بإصبعه : " يعني حذار، تلك القزمة يجري فيها دم أمها، هي أيضاً ستضع الرسن في عنقك إن عاجلاً أو آجلاً، فيصبح وضعك أسوأ من وضعي!" وخلص عزيز باشا من هذا الإنذار إلى هذه النتيجة :

- معنى هذا أن مصلحتك في التفاهم معي، لا تتدخل في تصرفاتي... هيا تعال معي الليلة... وانظر بعينيك وافهم كم يفتري علي المفترون ذوو الألسنة السيئة... اسكت، اسكت... لا تتكلم بلا جدوى... فأنا أعرف ما يحكونه عني... هو ليس كذباً كلياً، لكنه افتراء وتزوير ودناءة....

كان عزيز باشا سيزور أحد الباشوات المتقاعدين تلك الليلة، وكان هناك أيضاً بضع أشخاص آخرين عاديين. وكان هدفه من اختيار تلك الليلة لاصطحابي معه هو أن يقنعني بأن الليالي الأخرى تمضي هكذا أيضاً. بحثنا قليلاً في السياسة وتحدثنا عن الحرب، وعن التصوف، ولما رأينا الباشا المتقاعد يكبو، استأذنا وخرجنا. وفيما كنا نبحث في ستباشي عن عربة تقلنا للعودة إلى الفندق، صادفنا أحدهم، الذي عدد للباشا بضعة أسماء، وأخبره أنهم جميعاً في الطابق العلوي في فندق نوريه. ترنح حمي فجأة، وبحث عن ذريعة يتخلص بها مني. وعندما لم يجد ذلك قال : " هيا لنصعد معاً بضع دقائق... فهناك ما سأقوله لأحدهم!" كان هناك بضعة أشخاص يلعبون البوكر في إحدى غرف الفندق، وكان

t.me/yasmeenbook

واضحاً أنهم من الطبقة الراقية. كان أحدهم تاجراً أرمنياً من أصحاب المزارع والبساتين في بورصه. ويبدو أن الباشا كان ينوي أن يفارقني بعد الجلوس قليلاً، حيث قال : " فلأتفرج على هؤلاء قليلاً، أنت لا تعرف اللعب، لذلك اقرأ جرائد أو ما شابه ! يقولون عني إنني أقوم وأقعد مع المقامرين، سترى الآن شكل هذا القيام والقعود... إنني أجلس في طرف وأتفرج، هذا كل ما في الأمر..." كان مطمئناً إلى أنه سيريني هنا أيضا أنه مثال التهذيب، كما حصل في بيت الباشا المتقاعد. لكنه بعد قليل لم يحتمل فضموه للعب. ولكي يلهيني ويسليني كان يطلب لي القهوة والشاي بلا توقف. ثم لما علم بوجود برتقال جيد في الفندق، قلب الأمر إلى البرتقال، وصار يصرخ على نادل الفندق الأرمني المسن كلما دخل " حجي أحضر برتقالاً للفتى !" وبعد فترة من الزمن قال لي بلباقة " هل تحمل معك نقوداً يا شرف؟" وما أدراني أنه سيقامر بها ؟ أعطيته. طلب مرة ثانية، فأعطيته أيضاً، ولما راجعني مرة ثالثة، أدركت أن هذا لا نهاية له، فقلت له كي أقطع أمله : " لم يبق معي إلا هذا يا سيدي الباشا " ودسست في يده بلباقة بعض النقود الصغيرة. وعندما رأى التاجر الأرمني هذا مازحه قائلاً : " ظهرك قوي هذه الليلة يا سيدي الباشا. إنهم يمولونك جيداً !".

بعد أن انفلت رأس الخيط بحسب تعبيره، صار حمي يصطحبني معه اعتباراً من تلك الليلة. وصرنا الآن صديقين حميمين لا تتسرب الماء من بينهما، ومتفقين متعاهدين تجاه " القزمة ". ثم تركني وسافر إلى كمليك. مع ذلك بدأت أنا أيضاً أقوم ببعض الزيارات الليلية الصغيرة، لكن زياراتي كانت مختلفة كلياً. إذ بدأ يتشكل لدي بعض الأصدقاء من ذوي المكانة المرموقة في البلد. كانوا أناساً متنورين، وكان أكثر حديثنا يدور عن أحوال البلد. فيقصون قصصاً مخيفة عن ازدياد تفشي الجوع يوماً بعد يوم، وعن المهانة في كل جانب، وعن الدماء التي تسيل كالماء في الجبهات. وصارت هذه القصص تلفني رويداً رويداً لأنني صرت أرى نبذاً منها فيما يحيط بي.

t.me/yasmeenbook

وكانت قصص هذه الألاعيب والدّوامات أكثر غموضاً وتشويقاً من الروايات من حيث دقة الأسلوب والترتيب، لأن بعض رجالات الدولة كان لهم يد فيها.

لم أعد الآن رجلاً متردداً، مهموماً، مجفلاً يهرب من الناس كما كنت في الماضي. إذ صرت أشارك في المناقشات بانفعال، وكان ذلك كله يبدو لي كأنه واجب وطني جديد. إذن يبدو أنه يجب علينا أن نفتح جبهة ضد أعداء الداخل في الوقت نفسه الذي نحارب فيه أعداء الخارج.

ذهبت في هذه الأثناء في إجازة إلى كمليك ثانية. وأثناء العودة وجد حمي بعض المبررات الجديدة ليرافقني، إضافة إلى بعض الكذبات التي أجبرني عليها. اتسع محيطي الآن في بورصه. وصرت أتعب تعباً أخشى معه المرض من عملي في شعبة التجنيد نهاراً، والاشتراك في هذه المناقشات التي تستمر حتى طلوع الفجر أحياناً. لكن بعكس ذلك فقد أفادتني هذه الحياة، إذ صارت صحتي وحيويتي تزداد يوماً إثر يوم.

* * * * *

انضم إلينا الطبيب العائد إلى بورصه بعد أن سافر فترة إلى بالي كسير. لم يغير الطبيب كثيراً من حياته الانعزالية في قلب هذا الاضطراب، فأقام وحيداً في بيت امرأة عجوز في حي جكركه، لكنه كثيراً ما كان يأتي لرؤيتنا في نزل مدام بوروت خاصة أثناء وجود الباشا.

رأيت برفقته في إحدى الليالي رجلاً أنيق الهندام للغاية، ذا شعر قصير منتصب، وشاربين على النموذج الألماني ضاربين إلى الرمادي. كانت هناك حدة وآمرية خاصة بالعسكريين ذوي الرتب الكبيرة، في تصرفاته ونظراته وخاصة في حديثه.

كانا يجلسان وحيدين إلى منضدة. أشار إلي الطبيب بيده من بعيد، وعندما ذهبت إليهما وفي نيتي عدم الجلوس، قال :

t.me/yasmeenbook

- شرف! حدثتك ذات مرة عن صديق لي عسكري. العقيد مراد. عسكري كان له دور كبير في حركة الدستور " المشروطية " ثم دخل بعد ذلك معترك السياسة... كان قد وعدني بالمساعدة في أن يفتح لك الطريق لتصبح مفتش مالية. تذكر ذلك... من المؤكد أنه كان سيفعل ذلك، لكن لم تبق هناك حاجة لذلك.

مدّ مراد بيك يده إلي من حيث يجلس، وضغط على يدي بأصابعه القاسية كالكلابات، ودون أن يتركها سحبني وأجلسني بجواره. كان واضحاً أن الطبيب حدّثه مطولاً عني قبل قليل. إذ قال :

- أعرف حماك من بعيد. كان أحد باشوات الإدارة القديمة، لا يستحق مطلقاً أن يرمى به إلى الخارج.

ودون أن يقول شيئاً آخر، تابع يشرح ما كان يشرحه للطبيب، هو أيضاً كان يتحدث عن احتكارات الحرب، وعن الإدارة اللاشرعية. " كم مرة قلت لأنور، لكن سعادته لا يفهم الكلام." " وقلت لطلعت يجب أن تنسحب يا أخ... ضمن هذه الشروط لا يبقى لك من عمل غير الانسحاب." وكان كلامه هكذا بأمان وارتياح للغاية يدل على أنه رجل مهم من رجالات اليوم. والدليل الآخر على ذلك هو انتقاده اللاذع للحكومة والقصر الأحمر وكأنه يجلدهم بالسوط دون أي خشية أو حذر. لأنه لو فعل هذا شخص عادي في هذا الزمن لأعدموه. وكان ما يجعلني أفتح عيني دهشة وتعجباً أنه من رجال الدولة، وأنه يتحرش بها وينتقدها هكذا. كانت على وجهه خطوط وأخاديد عميقة ومنتظمة كأنها شقت بسكين رغم أنه لم يكن مسناً. وقد تبينت أن إحداها فعلاً جرح سكين.

بعد السياسة تحدث مراد بيك طويلاً مع الطبيب عن ذكرياتهما المشتركة في البلقان. وكان يصور الطبيب في الجيش وفي حركة الدستور " المشروطية " شخصاً مختلفاً جداً عمن أعرفه. فطبيبي الهادئ والزاهد كنبي، أخذ بندقية عسكري جريح واشترك في التصدي لغارة إرهابية مفاجئة شنتها عصابة ساندانسكي في طرابيا العليا قبل " المشروطية ".

t.me/yasmeenbook

ثم عاد ثانية للحديث عن أمور اليوم. وصار هذا الرجل الذي كان يتحدث قبل قليل كرجل عصابات ثوري، يتحدث الآن كرجل دولة بعيد النظر. في البداية كنت أتساءل حائراً ماذا يفعل رجل الأحداث الهائج هذا بيننا بينما الدم يغطي الركب في الجبهات، ولماذا لا يركل السياسة ويعود إلى الجيش ثانية. قال وكأنه يجيب على هذا السؤال : " سيكون ما يكون عند الآخرين، وأتمنى أن يوفقوا وينتصروا كانتصار جنق قلعه، لكن الجبهة الحقيقية، والوظيفة الحقيقية الآن هي في الداخل." ثم أوضح قائلاً : " هذا العوز المرعب الذي نراه يزداد في البلاد يوماً إثر يوم. العوز الحقيقي ليس في فقدان المواد الضرورية، بل في غياب التنظيم والمؤسسات. فالمادة التي لم يبق منها غرام في مدينة ما، تتلف في مدينة أخرى قريبة جداً منها لعدم وجود مشترين أو لعدم قدرة وسائط النقل. إن سبب تزايد البؤس بوتيرة واحدة مع الاحتكار، ومع مظاهر الفوضى الملموسة في إدارة الدولة، ليس شيئاً آخر غير هذا. طبعاً لا يمكن الحصول على المواد كما في السابق. لكن يداً؛ يد المؤسسات يجب أن تعرف كيف توزع الموجودات بشكل منطقي وعقلاني. كان بإمكاننا أن نخرج من هذه الحرب براحة. لكن ما كان بإمكان الدولة أن تفعل ذلك بمفردها، كان يلزمها أيد مساعدة. عندها ما كان ليوجد خلف الجبهة فاقة أو احتكار أو نهب !

المسائل التي كانت تتعقد وتتشابك مثل شعر أجعد كلما حاول مدرس الاقتصاد في كلية الحقوق أن يشرحها لنا، كان هو كأنه يلقيها بيده في غربال، وبعد بضع نفضات شديدة يرمي عنها ترابها وغبارها، فتظهر الأفكار أمامنا كقطع الجواهر الكبيرة، لامعة براقة خالية من كل الشوائب.

هذا الرجل الذي قال إنه انسحب من الحياة السياسية كما انسحب من الحياة العسكرية، من المؤكد أنه ليس سطحياً، أدركت أنه رجل مهم جداً، ولا بد أنه من تلك الأيدي المساعدة التي لم أستطع تصور كيف يمكن أن تكون. وكان قوله بأنه سيسافر غداً صباحاً باكراً إلى أسكي شهير، يؤكد ويبين هذا.

t.me/yasmeenbook

لم أكن قد تكلمت عشر كلمات عندما نهضنا للافتراق. أمسك فجأة بيدي وقال وهو ينظر في عيني :

- ما زلت عند كلمتي التي أعطيتها للطبيب يا عزيزي. سوف أهتم بك.

ثم أردف وعيناه أكثر قرباً، وكأننا تحدثنا سابقاً على انفراد في أشياء كثيرة :

- لا يمكن أن تكون الكتابة في شعبة التجنيد أو مصاهرة عزيز باشا وظيفة شاب مثقف ذي تحصيل علمي جيد مثلك، هل اتفقنا ؟

كنت مدهوشاً، ورغم أنني دخلت فراشي لأنام، نهضت ثانية وأضأت مصباحي. كان مراد بيك رجلاً يمكنني أن أقول إنني لم أصادف مثيله حتى الآن. فإذا نظرنا إلى حديثه مع الطبيب فهو رجل مغامرات مخيفة، رجل عصابات ولجان لا تخاف عينه ولا تهاب شيئاً؛ ثم ترون هذا الإنسان غزير المعلومات بشكل غير متوقع ممن يعيش هذه الحياة... ثم إنه رجل فكر خلط تلك المعلومات بأصعب الأفكار المعقدة والمتبخرة وهضمها وتمكن منها كأنها ألعاب يلعب بها. إنه رجل لا يقترب منه من صنف لا يقترب منه، لكنه الآن الصديق البسيط الأكثر قرباً من القلب...

شوشتني وقلبت كياني مغامرات البلقان التي كان هو والطبيب يستذكرانها ويتحدثان عنها. وكان يخيل إلي أن هذه المغامرات مثل ذكريات الطبيب الغرامية القديمة التي أخفاها عني. كنت فعلاً أغار منه وأشعر بشعور غريب من الضيق والاستياء لأنه لم يحدثني عن هذه المغامرات. إذن هم أنجزوا أفعالاً وقاموا بالمغامرات التي كنت أتخيل أنني فعلتها بلباسي المتخيل وحصاني الخيالي أثناء عودتي من كمليك إلى بورصه. ولن أنسى ما حييت نبرة صوت مراد بيك وأسلوبه في الكلام وهو يقول : " إننا عابرون في هذه الدنيا، وليس هناك مرة ثانية. يجب علينا أن نعيش الحياة ".

لا يمكن أن أحكم على هذا الرجل منذ الآن. ربما كان صعلوكاً متشرداً؛ وربما كان رجل فكر من طراز لا أفهمه. كائناً ما كان فهو

t.me/yasmeenbook

رجل مهم. كان دائم الفعل والقول، سواء كان ما يفعله ويقوله صحيحاً أو خطأ، وكان موفقاً دائماً في إنقاذ نفسه والخروج من بين المجموعة. حتى في هذه اللحظة والبلاد تحارب حرب حياة أو ممات، يحاول أن يكون قوة بمفرده بمعزل عن الجيش، وبمعزل عن السياسة، هل هذا حلمه الوهمي العبثي الذي لا طائل منه ؟ لا يمكن معرفة ذلك. ولكن ربما حدث العكس؛ وحتى إذا لم يحدث فإنه رجل بحجم قوته تلك. وإذا ما فكرت جيداً، أو ليست تلك الأشياء التي تحدثت عنها وتلهفت عليها من حرصي على المنصب وعلى الشهرة وعلى امتلاك المال، وكل ترددي ويأسي، وغير ذلك من الأشياء، نابعة من أنني لم أستطع ولن أستطيع الوصول إليها ؟ ليت هذا الاضطراب ساقني أنا أيضاً مع سليمان وأخذني حتى جنق قلعه على الأقل، حتى إذا ما عدت كانت لدي ذكريات أرويها وأشرحها فيما أنا أكرر وأردد في المزرعة كل يوم أغنية " أنا سعيد ".

حتى إن جملة مراد بيك الأخيرة؛ وقوله لي فجأة وهو ينظر داخل عيني وداخل قلبي : " مصاهرة عزيز باشا لا يمكن أن تكون منصبك ". يجب أن يكون هذا الرجل شيئاً مثل نبي ليعثر على هذه الجملة ويقولها. بقيت عدة أيام أرى هذه الليلة مجرد ليلة مليئة بالتأوهات والحسرات غير المجدية، وأن تأثيرها سيخف من يوم إلى يوم. مع أنها كانت في الحقيقة ليلة وصولي إلى نقطة تحول غير متوقع في حياتي.

ولم أفهم هذا حتى عندما رأيت مراد بيك بعد عشرة أيام في فندق مدام بوروت وهو يمد لي يده من بعيد ويقول : " صار لديك عمل. إننا ذاهبون ! ". فهمت عندما فتحت عينيَّ فجأة من غفوتي، وحزام حقيبة المراسل على معصمي، وعلمت من رفيق سفري أن المحطة التي وصلنا أمام أضوائها الآن هي محطة صوفيا.

* * * * *

t.me/yasmeenbook

كنت ذاهباً كمراسل إلى فيينا. حدث هذا الأمر من تلقاء نفسه أيضاً مثل تعييني كاتباً في شعبة التجنيد في بورصه. أبلغوني في شعبة التجنيد يوماً أمراً، فنهضت وذهبت إلى وزارة الحربية في استانبول، وراجعت مجموعة من الدوائر. وأثناء الليل قابلت مراد بيك في غرفة في الطابق العلوي في فندق طوقاطليان، فتحدثنا في أمور مختلفة. وعندما استأذنت للانصراف قال لي " إلى أين ؟ " فأجبته بأنني تركت حاجياتي في فندق في سيركجي، فاكتفى بالقول : " هنا أفضل لك، لقد حجزت لك غرفة." كانت هناك أكداس من الأوراق على المنضدة، وزجاجة مربعة عجيبة الشكل، قال : " إنه عرق اللوزالمر... جلبه لي صديق من رومانيا... إنه شيء خاص برومانيا... اشرب منه قليلاً... ستجد كم هو مختلف ! " وبعد أن شربت سألني : " أليس مختلفاً جداً ؟ " ولأني لم أعرف بماذا أقارنه لم يكن لدي جواب. لكن مع ذلك قلت " أجل مختلف جداً " لأن هذه هي كلمة السر، ألا تسأل شيئاً، وأن تقول " أجل" لكل شيء...

كنت كالآدمي الذي حل ضيفاً على قصر ملك الجن، تحملني قوة خفية كالريح، وتأخذني هنا وهناك، والأبواب تفتح أمامي من تلقائها وتغلق. وكما لم أسأل الطبيب لماذا فُرزتُ كاتباً مجنداً، كذلك لم أسأل أحداً الآن إلى أين أنا ذاهب. لا بد أنه المنصب الذي وعدت به. هذا كل ما أعرفه حتى الآن.

لم يكن ما أعرفه يختلف عما تعرفه سنيحة التي قالت باكية : "إنك تخفي عني شيئاً ! " فهل يعرف عزيز باشا شيئاً أكثر يا ترى ؟ ربما. فقد سرّ كثيراً عندما علم بأن رحلاتي إلى أوروبا ستبدأ. بل إنه زودني بالنصائح دون أن يظهر ذلك لسنيحة.

لكن ربما هو أيضاً لا يعرف سوى هذا. تحركت دون أن أودع الطبيب لأنه أرسل إلى بالي كسير للتحقيق في أمر هام جداً. لكنه عندما سافر إلى بالي كسير قبلني أكثر من ذي قبل كأننا فعلاً لن نلتقي لفترة طويلة، من يدري ربما كان هذا وهماً من أوهامي.

t.me/yasmeenbook

سألتني سنيحة المسكينة ولونها يتغير :

- حسناً، من أين طلع علينا هذا فجأة ؟

بادر عزيز باشا إلى الإجابة عندما رأى ترددي، فقال :

- هذه عسكرية، وهل تسأل ابنة عسكري عن مثل هذه الأمور.

- هل أنت عسكري ؟

توليت الإجابة هذه المرة وأنا أضحك مقهقهاً :

- ألا ترين لباسي ؟

- متى ستعود؟

فبادر عزيز باشا أيضاً قائلاً :

- هل تسأل ابنة عسكري هذا السؤال ؟

لكنه أدرك أن كل هذا الصدق لن يكون صائباً، فسعل وقال :

- قريباً جداً، لا شك.

لو حاولت أن أسأل نفسي هذه الأسئلة التي تسألها سنيحة فستكون الإجابات

أصعب.

- هل أنت عسكري ؟

- لا شك...

- في هذه الحالة، ما هي مهمتك ؟ ماذا تفعل في طوقا طليان ؟

- .....!

كنت أحتسي عرق اللوز المر رشفة إثر رشفة، فيما كان مراد بيك يقرأ الأوراق، ويمد يده بحركة آلية دون أن ينظر، ويعيد ملء كأسي حين يفرغ. ثم يبدأ بإعطائي التعليمات، ويطلب مني تسجيل ملاحظات.

لو كانت سنيحة المسكينة معي لأعملت عقلها وسألتني الأسئلة نفسها :

t.me/yasmeenbook

- هل أنت عسكري ؟

- لاشك...

- في هذه الحالة، ما هي هذه التعليمات الثانية التي تتلقاها من شخص مدني ؟

- التعليمات الثانية ؟ مجرد تعليمات... تعليمات بسيطة للغاية... لكنها لا تقال... هل يمكن أن تقال ماهية التعليمات ؟ حتى لزوجتي، بل وأقسم بأنني لا أقولها حتى لنفسي...

قال مراد بيك :

- هيا الآن لننزل لتناول الطعام.

نسيت هذه المرة كلمة السر وتساءلت :

- ولكن، كيف يمكن بلباسي هذا ؟

ابتسم مراد بيك بأسنانه الحادة البراقة التي بيّضت وجهه الأسمر الغامق، ونقف خدي بطرف ظفره كأنه يداعب طفلاً.

نزلنا وكانت الصالة مزدحمة بالناس، وبينهم نساء، ويعلو صوت موسيقى.

قال وهو ينظر في لائحة الطعام :

- لقد أخرجوا البلاد المسكينة من أسباب الحياة المقبولة. مع ذلك طلبنا لكلينا من الأصناف التي أشار إلى أنها أغلى بكثير جداً من اللازم... وفي مكان قريب من النافذة كان يجلس عسكري أنيق يتناول الطعام مع سيدة...

قال مراد بيك للنادل المار بجانبي، مشيراً بيده إلى العسكري :

- هلا ناديت إدريس.

ترك العسكري السيدة فوراً، وتقدم منا، فضرب كعبي حذاءيه ببعضهما وأدى تحية عسكرية لمراد بيك، كان فيها ما يشبه دعابة الأصدقاء.

t.me/yasmeenbook

جندي، لكنه يرتدي لباساً عسكرياً مغايراً للباس جنودنا. عرفته عندما رفعت رأسي عن حذاءيه الروجان اللمّاعين، ونظرت في وجهه. إنه زميل من أيام إعدادية مرجان، أو بالأصح احد معارفي. كان وقتها ولداً بوسنياً فقيراً جداً، يبدو طويلاً جداً داخل ثيابه القصيرة عليه، ذا رأس كبير وعينين غائرتين. كانوا يلقبونه الشيخ إدريس لأنه كان قليل الحلاقة، وبسبب بعض أحاديثه التي ربما اكتسبها من دروس تلقاها سابقاً في الكتّاب... لم يكن أحد يجاريه في الدراسة، لكنه لم يكن يستوعب الدروس. كان يجلس وحيداً أسفل أحد الجدران في فرصة الاستراحة يراجع الدروس، وعندما ينسى ما حفظه يلكم رأسه ويقول : "خَنْزَرْتَ ثانية !". ويروي أنه كان يفعل هذا أيام الامتحان ويُضحك المميزين الفاحصين. قضينا سنة زملاء في صف واحد، ثم رسب ونجحنا إلى صف أعلى فافترقنا.

لم يكن أحد يجرؤ على التحرش به لأنه كان قوياً جداً بحيث كان يرفع المتشاجرين بيديه بسهولة كأنه يحمل جرّة، ويفرقهما عن بعض. ثم إن دعواه كانت مع نفسه. ولم يكن لذلك أي سبب. كان أكثر ولعه بدروس الفيزياء والكيمياء، لكنه غالباً ما كان يرسب في هاتين المادتين. قيل إنه كان يشتري آلات وأدوات وقطع حديد من بائعي الخردوات ويحاول اختراع آلة. أخيراً ظهر أثر اختراع إدريس في هندامه. ومع تغير هندامه، زال الثقل الذي كان يحط على ذكائه أيضاً.

عرفني بنظرة واحدة مع أنني كنت أظن أنه لن يعرفني، أخطأ قليلاً في اسمي وقال :

- أوه ما شاء الله أشرف بيك.

بينما سأله مراد بيك :

- متى قدمت يا إدريس ؟

- منذ ثلاثة أيام يا سيدي.

- أنت مقيم هنا طبعاً ؟

t.me/yasmeenbook

- أجل...
- قابلني غداً صباحاً.
- أمرك سيدي.
- هل التي معك أولغا ؟ أحضرها إلى هنا ؟

في تلك اللحظة رأى مراد بيك مجموعة تحييه بيدها على المنضدة التي قرب النافذة، فأردف قائلاً لإدريس :

- دع عنك ذلك، لا تحضرها. سوف أرى بعض الأصدقاء. كنت سأعرفك على صديق جديد سيروح ويغدو إلى أوروبا في مهمة رسمية... صرت ممنوناً لأنكما تعرفان بعضاً مسبقاً. ادعه الآن إلى طاولتك، واشرح له جيداً مداخل ومخارج تنقلاته. هل فهمت ؟ هيا لا تدع أولغا وحيدة...

بعد أن حياه ذاك تحية عسكرية، وغادرنا، سألني مراد بيك، من أين أعرف إدريس. فشرحت له ذلك باختصار، كما شرح لي هو أيضاً باختصار عن إدريس الجديد، وأنهم بسبب معرفته اللغة البوشناقية أرسلوه إلى البوسنة لمتابعة بعض الأعمال، فأنجزها بنجاح. وأنه يعمل الآن مراسلاً خاصاً يروح ويغدو إلى فيينا... ويمكن أن يفيدني كثيراً...

جرت تماماً بالأهمية التي أولاها مراد بيك لهذا الرجل. ربما كان الحظ هو الذي جعل من إدريس ذلك الشخص الذي افهمني إياه مراد بيك. كائناً ما كان فالأساس يبقى هو الأساس نفسه. واستغربت كيف لم ير إنسان ذكي مثل مراد بيك إدريس القديم في حنايا إدريس الجديد. لكن يبدو أن مراد بيك استشف ما أفكر فيه لا أدري من أي تعبير من تعابير وجهي، حيث قال ضاحكاً بضع كلمات بينما كنا واقفين على وشك الفراق :

- هناك ربما عشرة ألبسة في خزانة ثياب إدريس في الغرفة المحجوزة له في الطابق العلوي حتى عندما لا يكون موجوداً، ولديه في الخارج عدة أولغات أخريات غير أولغا هذه. سألته يوماً :
- " من أين لك هذا يا إدريس ؟ "... فأجابني قائلاً :

t.me/yasmeenbook

- كان أبي يملك أراضيَ شاسعة في البوسنة، وأثناء ذهابي وإيابي بعتها بفضل مقامكم العالي." فقلت له :

- " أنت لم تبعها، أنت بعتنا يا إدريس !"

ارتسمت أمارات الحزن والأسى فجأة على وجه مراد بيك لكنه أردف قائلاً وهو لا يزال يضحك :

- عليك أن تغمض العين أحياناً وأنت ترى أحوال وتصرفات بعض الأشخاص الذين يفيدونك في عملك، فإنني لا أقصد مصلحة أشخاصنا الزائلة، بل مصلحة البلد، مصلحة الوطن... قلت لك هذا، لكي تعرف تماماً قدر إدريس وحجمه وكنهه، وتستمع إليه على هذا الأساس، وتأخذ منه بعض الأمور المفيدة جداً حتماً يا عزيزي.

أكبرت مرة ثانية مراد بيك المتفق معي في رأيي، ونظرت إليه على أنه رجل عقيدة سامية لا أعرف ما هي، فيما كنت قبل قليل مستاء منه وقد ظننته متوافقاً مع إدريس.

رغم أنني لا أعرف إلى أين أنا ذاهب، إلا أنني أدركت أنني دخلت في حالة مثيرة للاهتمام. سرت نحو منضدة إدريس وإحدى أولغاته بخطوات ثابتة، رغم أنني لا أنتعل في قدمي حذاءين لماعين مثل حذاءيه اللذين لا أعرف من أي نوع من الجلود هما.

فُتِحت أبواب قصر الجن بلا توقف، تلقائياً تقريباً، ومع استمراري في عدم رؤية الأيدي الخفية الفاتحة، أدركت أنني امتلكت شيئاً فشيئاً ملكة البحث والتفتيش عنها. وفي هذا السبيل كنت في البداية متخوفاً من أن أفقد توازني الفكري والوجداني، قليلاً أو كثيراً. لكن أيدي الجن التي سيطرت على قدري وروحي كانت أيديَ رحيمة وغير مرعبة. وكنت حين أتردد أحياناً، وأكاد أقع في الشك والريبة، أرفع رأسي فأرى الغاية النبيلة التي تحدث عنها مراد بيك تلتهب ساطعة بنور أبيض يبهر العينين؛ فيختفي ضعفي ويزول. فأنا لن أكون يوماً الرجل الذي يبيع

t.me/yasmeenbook

أراضي أبيه الوهمية مثل إدريس. ولن تكون معي أبداً حقيبة ثانية إلى جانب حقيبة المراسل. ولن أرتبك عند نقاط الجمارك لأنني ربما أحمل حزاماً ذهبياً أو ماسياً.

ولكن ربما كانت لدي مثلاً ساعة يد باهظة الثمن، لذلك كنت أشمر أكمام جاكيتي في الجمارك مثل أثرياء الحرب الجدد، لكي تبدو جلية واضحة في معصمي، وربما كان في حقيبة سفري آلة تصوير قيِّمة، وما إلى ذلك، إضافة إلى حاجياتي الشخصية، وهذه كانت من حقوقي المدونة في قوانين الجمارك مادة مادة. كانت حقوقاً واضحة جداً بحيث كان حتى رجال الجمارك يضحكون مني عندما كنت أفتح حقيبة سفري الصغيرة فوق طاولات الجمارك، وأريهم إياها دون طلب منهم... ثم بعد ارتياد البارات وملاهي الرقص والموسيقى للشرب والتسلية في الأماكن التي أمرّ بها، أجري بعض المحادثات العملية بعد معرفة بعض العناوين... ولم تكن المحادثات إكراماً لهذا وذاك. بل كانت في النتيجة من أجل الغاية الكبرى. ربما أصابتني بعض المنافع الصغيرة البسيطة في تلك الآونة، حصة الذكاء والتعب، لكنها كانت صغيرة وتافهة جداً، بالنسبة إلى أرقام العمولات الكبيرة التي تدير الرأس.

دامت رحلاتي مدة طويلة من الزمن، طيلة فترة الحرب. إذ ذهبت في إثر الفرسان الأتراك الذين وصلوا إلى النمسا، ثم ذهبوا يروون خيولهم على ضفاف فيستول، بعدها إلى ألمانيا وبرلين... بعد ذلك تغير خط السير، فذهبت عدة مرات متتالية إلى رومانيا... وفي كل عودة كنت أرى سنيحة الجديدة دائماً، في مزرعة نارلي كما تركتها، فتحول الحياة المتشابكة في لحظة واحدة إلى رؤيا قديمة منسية... نسياناً لا يبقى معه أي أثر لصور النساء الأخريات اللواتي عرفتهن في الطرقات وفي البارات، وكنت أخشى أن تكون صورهن قد التصقت بي، وبقيت بتأثير المشروبات المختلفة والأضواء وما إلى ذلك...

كانت نظراتي ورائحتي وكل ما فيّ هي نفسها القديمة أمام سنيحة الجديدة والغريبة دائماً، التي لم تغير عادتها، ولم تهرع إلي حتى بعد كل

t.me/yasmeenbook

هذه الرحلات الطويلة والخطيرة. كانت بريئة بحيث لم تسألني عن الهدايا الثمينة التي جلبتها لها " من أين ؟ " وما الذي ليس لدينا لنسأله لبعض ؟

*****

ثم تغيرت فجأة في أحد الأيام وجهة سير هذه الرحلات. فلم أعد مراسلاً. حتى أنني لم أعد عسكرياً، والأصح أنني صرت عسكرياً في إجازة، ثم صرت عسكرياً مجازاً إجازة مرضية، ثم أخيراً عسكرياً مؤجلاً لسوق الدفعة الأخيرة. كانت هذه المصادفات والفرص كلها تحدث وتجري بشكل يبدو طبيعياً جداً، ودون أن يكون لي أي علم بها. أخيراً صرت حراً عندما أحلت إلى سوق الدفعة الأخيرة. لكني مع ذلك لم أكن حراً. كنت أمر على مزرعة نارلي بين الحين والآخر لفترة قصيرة. ثم أيضاً إلى الطريق. ظهر إلى الوجود هيكل مؤسسة تشبه المؤسسات الحديثة التي وصفها مراد بيك يوماً بالجبهة الداخلية. أحدثت الآن في مجلس الوزراء وزارة سميت وزارة التموين، كما أوجدت مديريات التموين في كثير من الولايات. ورغم علاقات العمل الوثيقة التي كانت تربطني بها، إلا أنني لم أكن منها. بل كنت أبدو أكثر في المؤسسة التي أثبت مراد بيك ضروريتها، كإثبات النظريات الهندسية، وأطلق عليها اسم المؤسسة المساعدة، التي ستكون مؤسسة الدولة بدونها عبارة عن هيكل عظمي بلا لحم ولا أعصاب، غير قادر على السير. وقد بدأت المؤسسة المساعدة بالعمل في الأقضية تحت ضغط سوط الاحتياجات دون انتظار المؤسسات الرسمية.

رأيت قوافل النساء العجائز، والرجال المسنين المعلولين في المحطات، والبلدات الصغيرة، وعلى عربات شيشانية تجرها الحمير والبغال العجفاء، غادين رائحين على الطرقات. كان أغلب هؤلاء من العسكريين المتقاعدين والمعاقين، ومن الموظفين المدنيين المتقاعدين. كانوا ينقلون المواد الغذائية من الأماكن التي تتوفر فيها كقرى أسكي شهير،

t.me/yasmeenbook

وقونيه، وقرمان، إلى المراكز الكبيرة التي تعاني نقصاً في هذه المواد كاستانبول المحرومة مثلاً، بما يمكن أن يحملوه بأيديهم أو على ظهورهم من حقائب أو أكياس أو سلال.

هؤلاء كانوا أصغر المساعدين. فهؤلاء الناس الذين كنا نظنهم نازلين من القرى إلى سوق البلدة الأسبوعي، كانوا عندما نسألهم " إلى أين ؟ " يشيرون بأيديهم إلى الأمام ويقولون " إلى استانبول ". صادفت أحدهم في محطة القطار. كان عجوزاً ناحلاً لدرجة يمكن أن يقال إن جلد وجهه ملتصق بعظمه، ثقيل السمع، لكنه كان صلباً. وقد سرقت نقوده من جيب صدارته الداخلي أثناء إغفاءته وهو ينتظر القطار. كان يصدر الأوامر وهو يطلب المساعدة من كل من يصادفه من مأمور القطار إلى الشرطة إلى الضباط. كان مظهره مظهر شخص آمر حاكم، حيث لم ينزعج منه أحد، بل كانوا يهرعون لمساعدته، ولكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا في ذلك اليوم الحاشد ؟ تكلمت معه أنا أيضاً بدافع الفضول، وقد هدأ الآن بعد أن قطع الأمل. أخبرني أنه قائد لواء فرسان سابق، وأنه يروح ويغدو الآن باستمرار بين استانبول وقره مان حيث يقيم صهره وابنته، حاملاً معه بضعة أكياس وبضع تنكات من السمن والدبس وما شابه فيبيعها في استانبول بربح كبير. لكن نقوده سرقت منه هذه المرة، وقد يعود فارغ اليدين إلى استانبول دون أن يستطيع الذهاب إلى قره مان.

لم يكن وضعي يشبه هؤلاء، ولا يشبه التاجر الحر. فقد كنت من ناحية موظفاً صغيراً في إحدى الشركات التي لها علاقات كبيرة بمديريات التموين. علاوة على أنني كنت أتجول لإنجاز أعمال الشركة. ومن ناحية أخرى كانت ترد لحسابي الشخصي مساعدات من مقطورات القطار دون أن أطلبها، أو دون أن أجري كثيراً وراءها، تماماً كما في قصر الجنيات غير المرئية التي تكلمت عنها. لم أكن أعمل بتجارة المقطورة، بل كنت أعمل بالتجارة المشروعة فأشتري بضاعة لحسابي الشخصي ببعض الاعتماد المخصص لذلك، وأنقلها. ولا بد أن هذا هو ما كنت أحس به منذ القديم بأنني أملك قدرة وروح رجل أعمال ! أخيراً

t.me/yasmeenbook

بدأت هذه القدرة تظهر نفسها. لم أكن أرى الطرق مفتوحة أمامي تماماً، لكن هذا لم يعد أمراً يزعجني ويجعلني أفكر. فأي قوة وأي نار أو سيل يعرف من أين خرج وإلى أين يمضي ؟ وعندما كنت أفتش وأحاسب نفسي أحيانا لم أكن أجد أي سوء أو تغيير في قلبي وفي أخلاقي. فكم تألم قلبي القديم الذي لم يفقد ذرة من مشاعره النقية، عندما كنت أستمع إلى العجوز في محطة قطار أسكي شهير ؟ كان الطريق غامضاً ومعتماً، لكن إحساساً ما كان يقول لي بأنني أسير في الطريق الصحيح، وأنني لن أحار ولن أحيد مطلقاً.

* * * * *

إنني الآن في استانبول، وسنيحة عندي أيضاً. إنها تغفو بانتظاري في غرفتنا، أثناء كتابة هذه الأسطر، وعمل جردة الحساب هذه.

استقر وضعي، فأنا الآن أكثر المدراء نفوذاً في شركة ذات تعاملات واسعة، غير تلك وأكبر منها بكثير، شركة توقف كثيراً من الدول باستعداد مثل نابض مطواة.

20 أيار 19

خرجت من فمي فجأة في إحدى الليالي جملة " هل بدأت تستثقلين الجرعة قليلاً يا ترى ؟ " فأجابت متظاهرة بعدم الفهم : " لا، ما المناسبة ؟ " كان هذا أثقل جواب أستحقه، ولكن يبدو أنني أنا أيضاً لم افهم.

هجمت عليها واحتضنتها لكي أزيل عنها الشعور المزعج الذي أيقظته فيها. صارت تصرفاتي الآن أكثر رقة وثقة بكثير من ذي قبل، وكلماتي أكثر مرحاً وتوداً. لكنني انتبهت فوراً إلى أن هذا شكل ثان من أشكال التهور. إذ تصلب جسد سنيحة بين ذراعي وتقلص. لكن هذا

t.me/yasmeenbook

التصلب لم يكن تصلب حياء كما في ليلة عرسنا الأولى وفي كل زمان. إنه شيء مختلف، شيء مختلف لدرجة أنها قبلتني من تلقائها قبلة ليس فيها طعم القبل السابقة، وكأنها قبلة تهنئة بالعيد...

بقيت لدي حيلة أخيرة لجأت إليها بأن ضغطت بيدي على صدغي وأغمضت عيني وقلت : " آه من هذه الأعمال... لو تدرين كم أنا متعب اليوم ! "

" هل ثقل عليك الأمر يا ترى ؟ " مؤكد أن هذا كان تهوراً، ولكن ما الحيلة هذا هو التفسير الوحيد، ولا تفسير غيره.

كانت هناك دودة تقضم أحشائي بلا توقف في الأيام الأولى لزواجي بسنيحة. إذ كنت أخاطب نفسي قائلاً :

" ألن أظل قروياً إلى جانب فتاة شابة خريجة مدرسة فرنسية في هذا المحيط الذي ندعوه المجتمع الراقي ؟"

مثل القروية التي أحبت الراعي في الحكايات. قد لا تريد رؤية غيري لفترة من الزمن. ولكن ماذا فيما بعد، بعد ان تخبو جذوة حبنا الأول ؟... ألن تبدأ بالتفكير في نمط آخر من الحياة، وفي نوعية أخرى من الناس ؟ هذا الخوف كان سبباً في أن أتذرع بالأمطار فأقطع بعد مدة قصيرة جداً، أول رحلة شهر عسل ذهبنا فيها سوية إلى استانبول. فقد كانت أحشائي تأكل بعضها بعضاً كلما رأيت كيف تتغير أمام أقاربها من المجتمع الراقي وأصدقائهم الظرفاء اللامعين الذين يشبهونهم، وكيف تتكلم معهم بأسلوب مختلف جداً، وكيف تتأنق وتتزين. وكان هذا سبباً أيضاً، نوعاً ما، في رغبتي في تغيير نفسي إلى رجل من طراز آخر. لكنها وبعكس مخاوفي، كانت هي التي تكتسب ببساطة المرأة القروية. وهكذا كنت أحاول إدخالها في حياتي الجديدة، رغم أنني لم أتخلص تماماً من خوفي من انفتاحها الزائد، النابع أيضاً من خوفي القديم. أما هي فقد أبدت عزوفاً شديداً تجاه محاولاتي.

حياتي الجديدة ! لا بد لإنسان مثلي يعيش في أجواء العمل أن يحيط به أيضاً من يعيش ويلهو على هذا المنوال. ورغم أن الملاءة ما زالت هي الملاءة

t.me/yasmeenbook

القديمة نفسها، وقد اختفت تقريباً من أوساط المجتمع الراقي. إلا أن المرأة التي تأتي من الشارع بالملاءة إلى اجتماع مغلق، وتخلعها عنها عند الباب، ما زالت تؤثر تأثير المرأة نفسها التي تأتي لتمضية ليلة عابرة معك، وتخلع ثيابها عنها سراً لأجلك. ولم تتمكن التصرفات والحركات والمزاح والنظرات المتبادلة في هذه الزيارات، من العثور على مقاساتها بعد. أضف إلى هذا أن النساء هنا كنّ أكثر تحرراً من الأوروبيات اللواتي صادفتهن في الحانات والأندية الليلية الصاخبة أثناء رحلاتي، فالمرأة التي تراقص الرجل هنا، لم تكن تجد حرجاً حتى من رقص هز البطن والخصر والأرداف أمامه، عندما تشرب قليلاً من أي شيء.

لكل هذا كان علي أن أكون مسروراً من تحفظ سنيحة القاسي، من ناحية ما، لكن انسجام حياتنا كان يفسد من ناحية أخرى.

فالأمور التي تجري في المحلات أو في الورشات، أو على طاولات محاطة برفوف الكتب، أمور صغيرة دائماً؛ إنها أعمال نملة أو نحلة أو دودة قز صغيرة. بينما توضع أساسات الأمور الكبرى في الاستقبالات، وفي الحفلات الساهرة الراقصة، وفي سباقات الخيول. أما أكبرها التي تؤدي إلى تصادم الوحدات العسكرية، والتي تمسح وتزيل الدول الكبرى عن الخرائط في غضون بضع ساعات، وأعمال الدول التي تجمع ثروات فلكية أو تدمرها بإشارة لاسلكية صغيرة، وأعمال اتحادات الشركات الاحتكارية، والبورصة وما إلى ذلك، فيتم عقدها وحلها وقوفاً في الصالات والممرات برداء الفراك الرسمي وأقداح الشمبانيا في الأيدي، وأحيانا في الحفلات التنكرية الراقصة.

لكن مصيبتي أنني لم أستطع إفهام سنيحة الشابة، سنيحة ذات الذهن المتفتح، هذا الأمر، ولم أتمكن من جعلها تتقبله، فعلى زوجها أن يتخبط طوال النهار بكل حرارته وطموحاته سعياً وراء قدره الجديد الذي انفتح أمامه فجأة. لكنه عند الليل يجب أن يرتدي بيجامته وينتعل خفيه، ويردد تحت ضوء حالم منبعث من مصباح ذي ظلة زرقاء :

t.me/yasmeenbook

- هل نحن سعداء ؟ -طبعاً نحن سعداء. — وبعد ذلك... — ماذا سيصير بعد ذلك ؟ ها نحن سعداء. " أوه، ما أحسن ذلك، ما أحسن ذلك ! يا لسنيحتي المسكينة البسيطة.

كانت تحار وتدهش وأنا أبدو لها بأنني لا عمل ولا شاغل لي سوى اللهو والعبث والمجون، ولكم علمتْ بأنني خرجت مع مجموعات مختلطة من الرجال والنساء في رحلة لهو بحرية أو برية، أو ذهبت إلى حفلة لهو في أحد الصالونات. ولم استطع إفهامها بشكل من الأشكال أن هذه المسائل متممات لعملي الجديد. وأن قسماً من هؤلاء الذين يبدون كأنهم لا يفكرون بشيء سوى باللهو والشرب والرقص، هم رجال أعمال، وأن قسماً منهم رجال دولة، وقادة فرق، ونواب، وغير ذلك من الشخصيات، وأنه لا يمكن القيام بأي عمل، ولا حتى التنفس بدون هؤلاء. وأن مجرد الظهور مع بعض هؤلاء ضمن مجموعة ما، ومجرد وضع الأيدي على أكتاف بعض يفتح أبواب ثروات خيالية، ويفتح آفاق المستقبل. ولا بد من الضحك معاً؛ والظهور كمن يشرب معهم سوية، بل والشرب قليلاً؛ ويجب عدم إظهار الجهل بلعب القمار حتى وإن لم يجلس المرء إلى مائدة القمار؛ بل واللعب بشكل جانبي ولو كشريك على الأقل.

وهل نسينا مزاح تاجر الحرير العجوز معي حين قال : " ما شاء الله، إنهم يمولونكم جيداً يا سيدي الباشا ! " ليلة دسست بلباقة بعض النقود الصغيرة في يد عزيز باشا عندما نفد ماله في لعب البوكر ؟

هل يمكن لمثل هذا الإنسان أن يفكر بالتعامل مع رجل مثلي في الحياة العملية ؟

لم تفهم سنيحة هذه الأمور البسيطة رغم كل ما شرحته لها، وإن كانت تبدي أنها فهمت. إذ كانت تنظر في وجهي كأنها تقول " حسناً وما هذه الحرارة والحيوية والمرح، وما هذه التصرفات الجديدة إذن ؟" ذاك أيضاً له جواب : " تمثيل ... " حتى الممثل الذي يمثل دور المنتشي أو السكران بإحساس وبراعة، سيبقى بعد خروجه من المسرح، يضحك أو يترنح فترة من الزمن. ما أدراني، هذه ضرورات الطباع الإنسانية.

t.me/yasmeenbook

لكن يجب عدم الوقوف طويلاً عند هذه النقطة. فلا بد أن يبقى على شفتي الممثل الذي قبل شفتي ممثلة حسناء، من أثر هذه القبلة، شيء من أصبغة شفتيها، الذائبة بحرارة ورطوبة القبلة، والملتصقة بشفتيه. كنت في البداية أشرح لسنيحة كل شيء بصراحة ووضوح. وكنت آمل أن تفهم وتقتنع ببراءتي أكثر كلما أسهبت في شرح التفاصيل أكثر. حتى إنني رأيت من واجبي أن احكي لها مازحاً أن صديقات وبالأحرى عشيقات بعض معارفي حاولن أن يغازلنني. هي أيضاً كانت تتظاهر بمجاراتي بالضحك. لكنها مهما كانت فهي امرأة. لذلك اضطررتُ لتغيير أسلوب حديثي فيما بعد، فصرت أخفي عنها كلياً بعض الأماكن التي أذهب إليها، وأغيرُ أسماء بعضها أحياناً. وهكذا بدأ الكذب الذي لا مفر منه يسود بيننا. بعضه لم يكن بالقول، بل كان عبارة عن كذبات صغيرة يعبر عنها بالصمت. لكن يجب أن أكرر وأقول؛ مهما كانت فهي امرأة. فكلما نقصت قابلية فهمها للأمور، كانت تزداد كثيراً قابلية إحساسها. لذلك قوبلت كذباتي الصامتة، بكذباتها الصامتة أيضاً، بل وحتى بكذبات قولية أحياناً. كنت أهصرها بين ذراعي هصراً أشد من أي وقت مضى. لكني كنت أحس بابتعادها عني أكثر، بقدر ما كنت أهصرها أكثر صرنا غريبين عن بعض. لكن هذه الغربة لم تكن تلك الغربة المقدسة المليئة بالارتعاشات التي كانت في ليلة العرس الأولى، وفيما بعد في الليالي التي كنت أعود فيها بعد فراق. لقد غيرَ حبُّنا طعمه.

* * * * *

أخيراً، قالت لي ليلة :

- شرف، يجب أن أذهب إلى المزرعة فترة. إني قلقة على أبي.

كان عزيز باشا قد زارنا قبل عدة أشهر، وبعد أن زرنا عيادات كبار الأطباء من اجل بعض العوارض الصغيرة الناجمة عما يمكن أن يقال عنه مرض الشيخوخة، وبعد أن اطمأن جيداً، زار بعض الأماكن التي لا

t.me/yasmeenbook

نعرفها ، وبات بعض الليالي عند أقارب يقطنون في أحياء بعيدة. لكن تبين فيما بعد أن هذا كله كان كذباً. كانت نشوته وسعادته تامتين. واختفت أحزان وأعراض الشيخوخة المزعجة التي حطت عليه في بدايات الشيخوخة. والخلاصة أنه بدا ممتناً ، وأعجب بحياتنا. ولم يكن في وضعه ما يدعو للقلق.

شرحت هذا لسنيحة فوافقتني؛ ومع ذلك أصرت قائلة :

- إني قلقة عليه... وحدتُه تعذبُ قلبي. ثم هناك أعمال المزرعة التي تركناها... صحيح أنني لا افهم كثيراً في تلك الأعمال... لكن انشغالي بها قليلاً سيكون حسناً مهما يكن....

صرخت بانفعال وارتباك :

- هذه الأمور لن تحل في بضعة أيام، بعد أن تكلمت عن الانشغال بأعمال المزرعة، وبعد أن تكلمت عن الوهم الأكثر من ذلك وقلت " وحدته تعذب قلبه ".

مالت برأسها إلى الأمام في لحظة من لحظات صمتها ، وقد تعمقت التجاعيد العنيدة في جبينها.

قلت :

- حسناً ، وماذا ستفعلين بي ؟ أنت تعرفين كيف أدور داخل زوبعة... في وقت احتياجي الشديد لك...

- وقت احتياجك لي ؟

بدت ابتسامة مريرة على شفتيها ، وبعد لحظة بدأت شفتاها ترتعشان. داخلني أمل بأننا سنتخلص من مجموعة الأكاذيب المتلاحقة ، وأننا سنجد بعضاً ونلتقي ثانية. لكن تلك الرعشة سرعان ما اختفت، وتقلصت شفتاها ثانية ، وظهرت التجاعيد العنيدة في جبينها أكثر قسوة وصلابة ، وكأنها أدركت أنه لم يعد هناك ضرورة لأي شيء....

وعلى أمل أن أعيد مرة أخرى لحظة ضعفها التي بدت واختفت في آن معاً ، لجأت إلى أقوى أسلحتي وقلت :

t.me/yasmeenbook

- كيف لن تُشغَلي بي ؟ ماذا سيحل بي من دونك ؟ حتى ولو لمدة قصيرة...

قالت وهي تهز رأسها عدة مرات متتالية " طبعاً لمدة قصيرة ". وقد اعتادت منذ مدة أن تفعل هذا كلما أردت أن أبدأ بترديد أغنية " ألسنا سعداء ؟ ". قلت لها " قبليني يا سنيحة ! ". قبلتني على عجل وتراجعت، كأنها لا تريد أن تترك لي مجالاً للإلحاح. قلت : " قولي بأنك تحبينني، ماذا يصير ؟ " فقالت بأسرع من السابق " طبعاً أحبك ". تجمدت في مكاني فجأة. ماذا جرى لنا ؟ " أحبك " تحرقت شوقاً وجننت طوال عمري لكي أسمع هذه الكلمة مرة واحدة بصوتها. هي كانت تتجول في أغلب أوقات حياتي اليومية كامرأة حسناء صغيرة، أحسن " رفيقة حياة " كزهرة فقدت شذاها لكثرة شمّها. لكن كانت تمر علي أحيان أيضاً، كنت أراها عندما أستيقظ صباحاً، وقد اتخذت ملامح جنية لا تُمس ولا يمكن الوصول إليها، تملأ عينيّ الاثنتين وتغطي أفقي بأكمله. كان هذا شيئاً أشبه بطلاسم الحكايات والأساطير. وكأن كل قدرتها الخفية كانت كامنة في كلمة " أحبك ! " وانفك سحرها حين نطقتها بلسانها. إنها الآن امرأة كسائر النساء، إنها رفيقة حياة جيدة. نظرتُ في عينيها؛ ونظرت إلى تفاصيل ملامحها. لقد غدت الآن كدنيا هندسية فقدت ظلالها وألوانها، فلا خيال ولا سحر فيها. كنت أنا السبب في هذا. ولكن لماذا كسرتْ هذا الطلسم ورمته بكل هذه السهولة ؟

راحت تسدي إلي نصائح معقولة بصوت رزين وحاجبين معقودين وعينين قاتمتين لا خيال فيهما، ودون أن ترى ضرورة لتهربهما من عيني، كأنها تشرح بعض الكلمات لطفل؛ فأفهمتني بأنني أستطيع إدارة شؤوني بلا أدنى شك. فأنا كما كنت أردد دائماً رجل بكامل قوتي ولم أعد طفلاً، وقد ذهبت أثناء خدمتي العسكرية إلى أوروبا الملأى بالأخطار، ورحت إلى الأناضول وجئت بسلامة أيام تفشي النزلة الإسبانية وموت الناس أفواجاً أفواجاً في أزقتها. وأن كافة النساء، وخاصة منهن زوجات العسكريين يعشن بعيداً عن أزواجهن فترات طويلة غير محدودة. وكمليك

t.me/yasmeenbook

ليست في آخر الدنيا. ثم إنها طبعاً سوف تعود، لا بد أن تعود. هي فقط اشتاقت إلى أبيها، واشتاقت إلى المزرعة.

قلت :

- سوف آتي أنا أيضاً، إذا بقيت فترة طويلة، ولتتكدس الأعمال والأشغال فوق بعضها.

فقالت بابتسامة مريرة لاحت على شفتيها واختفت في اللحظة نفسها :

- لا شك أنه شيء لن يكون !...

أجل. لا شك أنه شيء لن يكون، لقد ارتكبت آخر أخطائي وأنا أردد هذه العبارة، فلجأت حينها إلى آخر وسيلة، كان ذلك ابتزازاً معيباً مني، لكنني لم أعد أفكر وذكّرتها بأنني إنسان ضعيف التوازن حاولت قتل نفسي في إحدى لحظات يأسي الكبير. فلم يبدو عليها أي شيء من الخوف، أو التأثر ! بل مالت برأسها قليلاً، وبظل ابتسامة مريرة على شفتيها، وبعينين لا ذرة خيال فيهما تنظران إلى لوحة معلقة على الجدار، قالت كلمة واحدة فقط :

- ولدنة !...

تركت النقاش وأنا أذوب خجلاً.

* * * * *

سنيحة الآن في المزرعة. أوصلتها بنفسي إلى كمليك. لم أفارقها أثناء تجهيز حقائبها في بيتنا. اضطربت حين رأيتها تأخذ بعض الأشياء الصغيرة، فقلت :

- لكن هذه الكنزة الصوفية تلبس في الشتاء الأسود، ونحن ما زلنا في منتصف الصيف... ما الذي داخل تلك العلبة ؟ شهادتك، صورتك مع زميلاتك يوم مغادرتك المعلمة.... ما ضرورة حمل هذه الأشياء في رحلة قصيرة ؟

t.me/yasmeenbook

لم أكن أستطيع رؤية وجه سنيحة المكبّة على الحقيبة. توقفت بضع ثوان وأنا أقول هذا، دون أن تدير وجهها؛ ثم تحركت يداها ثانية، فأعادت ما كانت قد أخذته، وقالت :

- صحيح، الحق معك.

هذه المرة أخذتُ من فوق القنصل صورة حديثة لنا التقطت على شاطئ البحر، وملت على الحقيبة كي أضعها مكان تلك. تنحت قليلاً إلى جانب، وقالت أيضاً دون أن تلتفت :

- انظر، لقد نسيت هذه؛ ووضعتها بعناية داخل الحقيبة. بدت في البداية كأنها ستعترض، عندما أخبرتها أنني سأرافقها إلى كمليك؛ لكنها قالت بسرعة وقد أدركت استعدادي للإصرار : " هذا سيكون أفضل، وهكذا ترى أبي أيضاً ! "

مكثنا في المزرعة سوية، أسبوعاً تقريباً. والزوار من المحيطين بنا، ومن معارفنا من القرى المجاورة يتوافدون بلا انقطاع. كانت سنيحة تهتم بأمور المزرعة حين تفرغ من الزوار، فتشرف على غسل الغسيل، وعلى بعض الترميمات والإصلاحات الصغيرة، ولأن الأراضي يزرعها شريك من قرية فيلادارلار، بقي ما قالت عنه سنيحة أعمال المزرعة مجرد بعض الأشجار المثمرة في الحديقة الداخلية وبضع دجاجات. وقد عمدت سنيحة مع قرويتين إلى نشر الخوخ الذي قطفته من الأشجار ليجف تحت أشعة الشمس، لكن هطول أمطار صيفية غزيرة وعابرة على المزرعة في تلك الأيام اضطرها إلى أن تهرب الفواكه من هنا إلى هناك بين الفينة والأخرى....

شكوت قائلاً :

- لا شيء يمكن أن يقال عن الضيوف الذين لا حصر لهم... ولكن أما كان بإمكانك تأجيل الأمور الأخرى إلى ما بعد ذهابي ؟

أعطتني الحق على هذا أيضاً، فقالت بسرعة :

- صحيح... لم أستطع التفكير هكذا... ولكن لا يمكن التوقف الآن بعد أن بدأنا بهذا القدر.

t.me/yasmeenbook

بقيت وحيداً مع عزيز باشا في هذه الفترة. هو الآن طفل تماماً. كان يقول لسنيحة عندما تكون معنا :

- يجب ألَّا تمكثي طويلاً هنا... لا يجوز أن تتركي زوجك وحيداً.

لكنه كان سعيداً جداً بالاحتفاظ بابنته لديه أطول فترة ممكنة، ولا يتورع عن التعبير عن ذلك بوضوح، عندما نبقى منفردين معاً فيقول :

- دعها لي فترة من الزمن... سوف تمضيان معاً سنوات كثيرة في المستقبل... أنت انتبه لأعمالك... انظر، ما شاء الله، إنها تسير سيراً حسناً.

ثم يردف بصوت خافت، مراقباً بعينيه اللتين ضعفتا وصفرتا مع الزمن، فيما إذا كانت سنيحة هناك أم لا :

- لا تسمع البنت... وطبعاً لن تهمل اللهو قليلاً... فالمرء يأتي إلى الدنيا مرة واحدة... وإذا كنت أقول يجب أن تلهو، فهذا لا يعني بضجيج وصخب. فأنا واثق من أنك رجل عاقل وحذر... والآن هيا إلى الطاولة... سأرى متى سأعلمك هذه اللعبة...

عزيز باشا المسكين !

كانت الأخبار ورسائل العمل والبرقيات تردني من استانبول بلا انقطاع. حتى إنني رأيت كاتبي يظهر في المزرعة يوماً وبجعبته أكوام وأكوام من الأضابير.

فقالت سنيحة :

- يجب أن تذهب. هناك باخرة غداً... لا أريد أن تنقلب أعمالك رأساً على عقب.

اصطحبتني إلى الميناء في اليوم التالي. وافترقنا.

* * * * *

بعد أن أقلعت الباخرة، رأيت سنيحة تتقدم إلى طرف الميناء مرة ثانية، وتلوح لي بمنديلها، ثم تعود، وتختفي بين الزحام. كان هذا الفراق الصامت مخيفاً، كأنه يوحي بأننا لن نرى بعضاً ثانية.

t.me/yasmeenbook

تملّك قلبي يأس شديد مفاجئ. تماماً كيأس تلك الليلة القديمة التي لا تنسى، حين هربت من المزرعة ودلفت إلى الحقول والأحراش يائساً من رؤيتها ثانية... وغمرتني أحاسيس تلك الليلة نفسها، ثم توالت خيالات وصور الأمكنة التي تجولت فيها بكافة تفصيلاتها. فرأيت المرتفعات وهي تظهر أمامي فجأة، والدغلات تلتف بساقي... أخيراً الجسر الخرب الذي كنت أراقب تدفق المياه المرغية المزبدة من بين أعمدته المتهدمة... كانت حالتي في تلك الليلة كأنها لا تزال مستمرة، حيث كان اندفاع الدم بدوي مخنوق في صدغي، يكتم أنفاسي ويخنقني ، بينما كانت نوبة من البرودة تمنح أفكاري انتظام وسطوع عالم نجوم باهر زاه.

لكن خيالي قفز فجأة قفزة مرعبة؛ فوجدت نفسي مضمد الرأس واليدين في غرفة الطبيب، وأبوها يحضرها إلي بأزهار من المزرعة في يديها، وبابتسامة حييّة بريئة على شفتيها... فإذا ظهرت مثل هذه النتيجة من خلال اليأس العاجز الذي أوصلني إلى حافة الموت في ذلك الوقت، لماذا لا يمكن حدوث الشيء نفسه اليوم أيضاً؟

لمعت في ذهني بسرعة وخلال لحظة خطة واضحة الخطوط كخطوط نجمة طائرة. سأكون في كمليك في رحلة الباخرة الثانية إليها، بعد وقت غير طويل، بعد أربعة أيام، وسوف تراني سنيحة فجأة أمامها ربما في الحديقة عند بسط الخوخ الذي تجففه تحت أشعة الشمس، وربما عند الباب، وربما ستراني أمام سريرها في غرفتها، مريضاً قليلاً ويائساً كما كنت في ذلك الزمن. وسأقول لها بلا كذب، ببراءتي القديمة نفسها : " لا يمكنني من دونك، فإما أن تأتي معي، أو سأبقى هنا من الآن فصاعداً ! " بل وسوف أخلع سترتي وأجلس على الأرض، وأتمدد، لكي أفهمها ذلك بشكل أقوى. ولتنظر إلي إن استطاعت بعينيها الكابيتين الفارغتين المستاءتين، لا شك أنهما مستاءتان... يداي مستندتان إلى حافة الباخرة، وعيناي مغمضتان نديتان، أرتعش وأنا لا أجد أمامي ثانية سنيحة المرأة الصغيرة المحبوبة، بل سنيحة ليلة عرسنا الأولى، الغريبة المطلسمة.

t.me/yasmeenbook

لا أنسى أبداً كلاماً كان الطبيب يكرره كثيراً في الأزمنة الأولى. إذ كان عندما يراني أنتقل بسرعة من اليأس القاسي، إلى البهجة المفرطة يقول : " هناك في طبعك جانب إنساني جيد؛ مع أنك تصاب باليأس بسرعة، إلا أنك سرعان ما تفرح لأصغر وأتفه الأشياء... ومرضانا كذلك أيضاً. فقد رأيت كثيراً من المرضى الذين كان يجب تجهيزهم لربط فكهم بحسب علمنا ومهنتنا، يتعافون وينهضون ويتجولون، بعد تبديل هواء غير مفهوم." ويوم جاء عزيز باشا ليعطيني ابنته، ذكرني بذلك أثناء مباركته لي، فضغط على فكي وأنفي وقال : " أنت أيها الولد الدمية!"

أستطيع القول أن بهجتي بأكملها عادت إلي فجأة. فلست أنا وحدي، بل سنيحة أيضاً كانت طفلة رغم كل مظهرها الوقور؛ فكلانا " طفلا لعبة الطبيب ".

كان هناك بعض المعارف البورصيين الذين استقلوا الباخرة من مودانيا.

اختبأت منهم كي لا أضطر إلى محادثتهم، . لكنني بعد أن نجحت في ذلك بسهولة، ظهرت ثانية، وذهبت إليهم، كانوا يتحدثون أيضاً بسحنات متطاولة وبنظرات قاتمة عن مشاكل البلد التي لا تنتهي. أردت إدخال السرور عليهم أيضاً؛ فرحت أقطع أحاديثهم المهمومة والمتشائمة بحركاتي التعبيرية التي صارت عادة في حياتي، وبأسلوبي السهل في الحديث، وأمزح قليلاً، وألقي بعض الفكاهات. هل أنساني أصدقائي الجدد معارفي القدامى هؤلاء قليلاً؛ أم أنني وبالبهجة التي تطفح مني تماديت قليلاً دون أن أشعر؛ لا أعرف. لكن الاستياء بدا على بعضهم. انبرى من بينهم عجوز أشيب يبدو من ثيابه أنه أفقرهم، كما يبدو من أسلوب حديثه المتحكم أنه ضابط متقاعد، فقال :

- صعدت البارحة إلى" أمير سلطان " لدفن طفلة عمرها سنتين من حيِّنا، توفيت بالزحار... وإذا بي عند طلعة المقبرة أصادف توابيت ثلاثة أطفال آخرين ! جعلوا توابيت الأبرياء صفاً في الطلعة... والغريب أنهم جميعاً ماتوا بالمرض نفسه... لا يوجد سكر... وبسبب إطعامهم تيناً مجففاً مدوّداً من العام الماضي... إنها مذبحة الأبرياء...

t.me/yasmeenbook

كان ما يقوله صحيحاً، فتعاسات الحرب كانت تأخذ أحياناً أشكال قتال، لا يمكن تحميل مسؤوليتها لأشخاص. وهي نتائج حتمية لكارثة الحرب لا يمكن لقدرة وإرادة الإنسان منعها...

فيما كنت أحاول أن أشرح هذا وفق نظرية مراد بيك وبقليل من تعابيره أيضاً، قاطعني الرجل العجوز بحقد أسود في عينيه، وقال :

- إن تحديد المسؤولين ليس صعباً بالقدر الذي تظنه يا سيدي، لو مددت يدي لأمسكت باذن واحد أو اثنين منهم.

كان هذا التهجم القاسي موجهاً إلي، فلا بد أن الآخرين أفهموه من أكون قبل أن أذهب إليهم. كما اتضح لي ذلك من دهشة واستغراب بعضهم أيضاً. لكنني لم أجبه. فعند الاحتكاك بمن يتحدثون في القضايا الكبرى، لا بد من إغماض العين عنهم.

كنت بطبيعة الحال واقفاً، ويداي في جيبيّ. تظاهرت بالتجول حولهم بخطوات صغيرة، ثم وسّعت الدائرة أكثر، وافترقت عنهم كلياً. فيما ظهروا كأنهم لم ينتبهوا لذلك.

قلت لنفسي :

-" المستاؤون يتزايدون. الجميع مستاؤون مني."

وتذكرت عبارة من عبارات مراد بيك. كان قد قال يوماً :

-" هناك على الجالسين في موقع السطوة الذين يفرضون الضرائب أيضاً، ضريبة يؤدونها. وهي أحقر من الضرائب الأخرى بكثير. " لا بد أن هذه هي الضريبة التي تحدث عنها مراد بيك... فهذه المجموعة هي بعض من مجموعتي الأولى في بورصة، كنا أناساً نشعر بتقارب ودفء كبيرين تجاه بعضنا أثناء تبادلنا الأحاديث؛ كانت مشاعرنا واضحة بقدر وضوح نظراتنا. ولم يكن هناك أي سبب لأن لا تكون كذلك اليوم أيضاً. لم يكن هناك سبب، فقد أظهروا سرورهم عندما ذهبت إليهم، وارتبكوا وتضايقوا واكفهرت ملامح وجوه بعضهم عندما تمادى العجوز تمادياً غير مناسب وقال : " لو مددت يدي لأمسكت بأذن أحد المسؤولين ". لكنهم

t.me/yasmeenbook

مع ذلك كانوا متحدين معه، وأخرجوني من بينهم، والأصح، إنهم لم يفعلوا شيئاً. بل أنا الذي خرجت منهم كما تنسل الشعرة من العجين، ووجدت نفسي خارجه وأنا أوسّع دائرتي بخطوات صغيرة أخطوها في مكاني وكأنني أعدها. كان هذا نوعاً من الرمي خارج الجماعة، طرداً من السرب، عقاباً بالنفي دون حكم أو قانون. ربما كان هذا أقسى أنواع ضريبة السيطرة التي أراد مراد بيك أن يشرحها.

أين يبدأ موقع السيادة والسلطة وأين ينتهي ؟ هل حول طاولات الوزارات المشهورة التي لا يعرف لماذا يقال أنها خضراء، أو يتصور أنها خضراء ؟ أم حول طاولات غرف فروع السلطة الواسعة المغلقة ؟ لكن استياءه هذا كان حتى مني، ونظراً لأنه انتشر وشمل ممثل شركة تجارية مغفلة، صغيراً وحديث عهد، لا فرق بينه وبين الآخرين سوى أن ساحة أعماله أوسع قليلاً منهم، وأن علاقاته بالدولة أكثر قرباً وحميمية قليلاً، فلا بد أن يكون استياء أوسع من ذلك بكثير. كان العجوز الفقير كالأمة، يقول بصوته المهيب كصوت الأمة : " لو مددت يدي لأمسكت بآذان بعضهم ! "... والحقيقة أنه كان بإمكانه أن يمسك بهم، بل وحتى أن يجرهم إلى خشبة الإعدام. ولكن من هم ؟ أنا وأمثالي، أم الذين هم أعلى مني مستوى... الذين هم في متناول اليد، وتحت وقع البصر....

يجب البحث عن المسؤولية، لا عن المسؤولين، ولكن هل للمسؤولية كيان، هل لها أذن يمكن الإمساك بها يا ترى ؟ وهل يمكن أن يكون هناك شيء من هذا في ضجيج الكوارث الكبرى، ككارثة الحرب، وكارثة المجاعة التي يجب أن يقال إنها كوارث سماوية لا مفر منها، حيث تكون حتى قدرة الكبار على الفهم والإدراك قاصرة ومحدودة كالصغار، إذ يجلس الجميع مثل أحجار الداما داخل خانات وظيفية بنظام تراتبي وفق درجات صلاحياتهم، بمظهرهم الكلي المتحد، الذي لا ينفذ منه الماء، لكن حقيقتهم أن كل واحد منهم آمر وحاكم للآخرين، كما أنه محكوم وألعوبة في أيدي الآخرين في الوقت نفسه.

t.me/yasmeenbook

ولا شك أنني أنا أيضاً أمثل وجوداً ما في خانتي الصغيرة التي تستقر تارة، وتتبدل تارة أخرى بريح يد خفية، داخل لوحة الداما الكبيرة هذه. ولكن دوري ومسؤوليتي ! كنا جميعاً نصرخ في أيام الشدة، وتنقلب لوحة الداما بأكملها من فوق إلى تحت، إلى صرخة. وكان مراد بيك أحد هؤلاء؛ فهو الشخص الذي عرفته عن كثب، وسمعت صوته بأوضح ما يكون. وإذا ذهبنا يوماً سوية إلى خشبة الإعدام، فإنني حتى في ذلك اليوم لن أعرف لماذا أعدم، كما لن أعرف لماذا أعدمت. فمراد بيك بتصوري إنسان يروح ويجيء بلا توقف مثل رقاص الساعة، بين خشبة الإعدام وقاعدة التمثال. وربما كان الآخرون جميعاً، وحتى أكبرهم هكذا أيضاً... فبأذن أي عود من العيدان المنجرفة بسيل جارف مرعب، سوف نمسك على أنه مسؤول؟

*****

كأن ما جرى معي في الباخرة غيرني وأبعدني عن همي اليومي.

لكن ذلك لم يدم طويلاً. ففيما كنت أراقب ذرا جبل بوز بورنو الذي خلفناه وراءنا وبدأ يبتعد ويغيب شيئاً فشيئاً، عاد استيائي الشخصي وجثم أمام عينيّ. ليس ببعيد، بعد أربعة أيام.

فعند عودة نيلوفر ثانية (صحيح أن هذه الباخرة الآن ليست نيلوفر القديمة، فتلك غرقت أمام أوديسا في بدايات الحرب، لكنها بالنسبة لي هي دائماً نيلوفر القديمة) أجل، عند عودة نيلوفر ثانية، سوف أذهب إليها، وسوف نتصالح.

كان هذا السرور الذي أوجدته بشيء بسيط من إعمال الخيال، كبيراً بحيث تغلب على اليأس الذي أوجدته أنا أيضاً، فتلاشت دنيا اليأس، وشقاء اليأس مسرعة. وبرد فعل معاكس تركت نفسي ثانية لحياتي الجديدة، وللبهجة وصداع الرأس في استانبول التي تقترب خطوة خطوة.

*****

t.me/yasmeenbook

يجب أن نقر بأن الأحداث بدأت تصدع الرأس. إذ بدأت رائحة حريق تفوح في الأجواء. وكلما ازدادت تلك الرائحة انتشاراً، ازداد في استانبول انتشار أغنية النصر النهائي ! " التي تشبه أغنيتنا " نحن سعداء!" ولقد انتشرت شائعات غريبة عجيبة عن الجبهات لغربية في ألمانيا وبلغاريا وجزيرة العرب وسلانيك.

كذلك انتشرت في الجبهة الداخلية شائعات شبيهة بتلك تتحدث عن انحلال الباب العالي، والقصر الأحمر. والأمر نفسه بالنسبة لمراد بيك المسافر الذي لا نعرف متى سافر، فالشائعات عنه متناقضة، منها ما تتحدث عن ذهابه في وفد سري للتفاوض مع الإنكليز في مالطة، ومنها التي تتحدث عن إعدامه رمياً بالرصاص في وادي سيد أحمد. ولم تكن هناك من وسيلة لإزالة التشويش الذهني الذي أحدثته الشائعات سوى ترديد أغنية " النصر النهائي ! "...

غياب الكبار في ساحة شركتنا، مهد السبيل لترؤس الصغار. أما أنا، فإني شخصية مرموقة الآن. لأن فقدان أصوات أصحاب الأمر والقرار بسرعة، حملني مرات عديدة مسؤولية إصدار الأوامر والقرارات الفورية في المسائل التي لا تحتمل التأخير والانتظار. فإلى أي حدٍ كان هذا صواباً ؟

لكن متعة إصدار الأوامر دون ارتباك وخشية، بين أناس مرتبكين مترددين... ونظرات الإعجاب والخوف التي ألمسها في أعين الناس... أنا لا أعرف الآخرين، لا أعرف أحداً، ولكنني لست الرجل القوي الذي يقاوم هذا. منذ اليوم الأول لم أكن أعرف الجهاز المحرك الهائل في قصر ملك الجن، ولم أفكر فيه. كذلك لم أكن اعرف كم كنت ناجحاً وأنا أنجز الأعمال التي كنت أسميها وظيفتي! ولكن هل كان الآخرون والكبار يعرفون أكثر من ذلك ؟ ربما صاروا الأكبر لأنهم كانوا يتصرفون دون معرفة. إننا نصف كثيراً من التصرفات بأنها تكبر وتباه، ونمرّ، ولكن هل الكبر الحقيقي شيء آخر غير التباهي يا ترى ؟ ومع أنني كنت ضعيفاً لدرجة أنني كنت لا أعترض أحياناً حتى على أصغر الأمور، كنت أقوم بأعمال كبيرة، وأرى في كل مرة قدميّ ترتفعان عن

t.me/yasmeenbook

الأرض قليلاً أيضاً، داخل دوار رأس حلو وهائج. هل قال لي مراد بيك : " لا يمكن أن تكون مصاهرة عزيز باشا مهمة إنسان مثلك !" لأنه رأى ذلك يا ترى ؟

أين مراد بيك الآن ؟ هل يناقش مقدرات الدولة بصلاحيات مطلقة في إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط ؟ أم إنه ينقاد الآن داخل عربة يد في وادي سيد أحمد...؟ كلتا الحالتان مهمتان باهرتان...

أمسكت هذه الأحوال بخناقي في استانبول التي جئتها مقرراً أن أعود مجددا إلى السيدة الصغيرة في مزرعة نارلي بعد أربعة أيام. فصارت الأيام الأربعة أسبوعاً، ثم زادت إلى خمسة عشر يوماً. ثم صارت شهراً. ولم أكن أستطيع التخلص من هذه الأجواء، حتى حين كنت أكتب لها رسائل أحيانا، ولا أجد ما أقوله، فأحس بضيق وضجر.

كانت نقية كالطفل. ولكن كيف أشرح مثل هذه الأمور لامرأة صغيرة غافلة عنها كالطفل ؟ ربما كان هذا هو سبب استيائها الشديد، وربما لا، فالمؤكد أن السيدة الصغيرة تستند إلى شكها وغيرتها؛ شيء مضحك...

إذ لم تكن في حياتي امرأة بالمعنى الذي تفهمه وتخافه هي... فقد كانت المرأة في حياتي من اللوازم الإضافية كالسيارة والهاتف. وهي كالنجفة لا يمكن إغفالها عند دعوة مجموعة من موظفي مؤسسة تعمل مثل عملي، إلى سهرة ليلية. إذ لم نكن نستطيع إيقاف مجريات حياتنا رغم أننا كنا نصاب بالذعر، وتصطك أسناننا حين كنا نتصور غياب عقولنا عن رؤوسنا، ورغم أن رائحة الحريق كانت تقطع أنفاسنا. كنا نفتح أعيننا دهشة ونتعجب أشد العجب ونحن نقرأ في التاريخ أن القادمين عند فجر يوم الثورة الفرنسية الكبرى لاقتياد المحكومين إلى المقصلة في ساحة غريف، وجدوهم في أوضاع غرامية شنيعة. والواقع أنه يجب ألا ندهش ولا نتعجب.

مجموعتنا أيضاً كانت ضمن هذه الحالة الروحية نفسها تقريباً، وتتبع القانون نفسه، وطبعاً لم يكن باستطاعتي في إطار هذا الانسياق

t.me/yasmeenbook

العام أن أتبع طريقاً آخر. كان السعار يزداد بشكل جنوني بنسبة ازدياد الأوضاع سوءاً. كان هذا مثل نوبات الحمى والحرارة الملتهبة التي تعقب نوبات البرد والارتعاشات الكبيرة. ربما كان انعكاساً ضرورياً للتوتر الكبير في الطباع الإنسانية.

كنا متوجهين بسياراتنا لقضاء ليلة لهو في غابات استيرانجا، ليلة قصفت الطائرات الإنكليزية باب وزارة الحربية في بيازيد. نزهة ليلية مختلطة في غابات استيرانجا في استانبول المثخنة مثل قنفذ بويلات الحرب وآثارها، والتي تصادف مفارز الدوريات بالخوذات عند كل خطوتين داخلها وخارجها... لم تستطع قنابل الطائرات ولا قذائف الدفاع الجوي، التي أحالت الظلام إلى ليلة ألعاب نارية مخيفة، منعنا من مواصلة سيرنا. صرخت وولولت بعض النسوة ممن كنّ معنا، فداعبناهن كما نداعب أطفالاً خائفين من الألعاب النارية. فالأعمال التي من نوع عملي تتطلب اللهو، واللهو لا يكون دون نساء. وكانت هناك بضعة منهن في سيارة كل منا. أنا أيضاً كنت أمازحهن كالآخرين، وأمسك بأيديهن، وأضع يدي على ظهورهن كلما اقتضى الأمر، وأقرّب رأسي من رؤوسهن. كان العاشق السكران يقلد زير النساء الماجن الوقح الذي لا تفلت من يديه الفارّة والهاربة. لكني أقسم بأنه كله كان تقليداً. كنت كالذي يشرب ماء ويهتز كذباً كي لا يفسد نشوة أصدقائه السكارى في مجلس شرب. كي أحمي المجموعة من تعليق فارغ. لكيلا يقولوا عني أبله. كانت هذه مظاهر متممة لتلك المظاهر الأخرى. هذه كانت سياستي التي أدركت أنها ضرورية منذ الليلة الأولى في فندق طوقا طليان، على منضدة إدريس، ثم عندما ذهبنا إلى أحد البارات برفقة أولغاهُ، وصرت أضحوكة للأولغات الأخريات اللواتي جمعتْهن حولنا، وبالأحرى حولي، النقودُ الورقية التي نثرها إدريس نثراً، وهو الذي كان في المعلمة يكتب وظائف زملائه التلاميذ بأجر نقدي لكي يؤمن ثمن الشمع للشمعدان الذي فوق سريره المعلمي. ثم لعبت هذا الدور بشكل أفضل في مهمتي في رحلاتي في أوروبا.

t.me/yasmeenbook

هذا كل ما في الأمر ! وإلا وبكل معنى الكلمة لم تحدث مني خيانة لسنيحة قط.

هل يمكن الاحتماء والتهرب من جسم استند قليلاً على ذراعك، أو من دفء لحم لامس لحمك، وهل يمكن تفادي النفور من أنفاس ثغر اقترب كثيراً من ثغرك أو من أذنك ليشرح لك شيئاً سرياً ؟ لكني بالعكس اتخذت وضعية الدفاع عن نفسي تجاه النساء اللواتي كنّ أكثر من يوقظن فيّ ضعفاً كهذا. كالوضعية النفسية لفقير شريف عندما يرى طعاماً فاخراً في واجهة مطعم، أو في طبق أحدهم، فيتصور أنه لذيذ جداً، ولكن لا يخطر بباله أن يكون هذا الطعام له. كالشاعر الذي يشبه ازدحام النجوم في سماء ليلة جميلة، بحشرات بحرية يراها اللقلق ويصور كيف يفكر اللقلق بها...

هذا هو الرجل الذي تخافه وتستاء منه سنيحة !

تشبيه أنفسنا بأولئك أمر مضحك، ومؤكد أنه مضحك جداً. لكننا كنا نحن أيضاً مثل محكومي الثورة الفرنسية الكبرى، نتسلى ونلهو بجموح وشبق، تماماً في عوالم " اضرب حتى تنتجر

كنت عندما أستيقظ صباحاً في سريري، أو على الأريكة التي تهالكت ونمت عليها أو على السجادة بملابسي، أشعر بصداع في رأسي نتيجة ما شربته، ونتيجة نومي الذي قلّت ساعاته، وأن داخل فمي كأنه صحن معجون غِراء، فأحلف يميناً بأن هذه هي المرة الأخيرة ! ". بعد أن ينتهي يومي العكر اللزج لزوجة الطين الذي انقضى بمختلف أشكال التعب والمكافحة. بين التنانير المثيرة. كنت لا أجيب على الهواتف، وأحاول الاختباء في أماكن لا يعثر علي أحد فيها. لكن الشريط كان يعثر علي ولو كنت داخل ثقب إبرة. وعندما لا يعثرون علي، كنت أبحث عن أسباب توقعني بين أيديهم.

كانت كل قوة جسمي المتعب جداً، تتلخص في كلمتين، " طموح العمل "، إذ وجدت نفسي مسؤولاً مسؤولية لم أتبين كنهها، ضمن آلية نظام عملاق. وتملكني إحساس بأنني آلة لقدر ستنفذ أحكامه بشكل

t.me/yasmeenbook

مطلق. وكان هذا بالنسبة لي شيئاً مثل مهمة إلهية. تهدّم جسمي واعتلّ بنوبات البرد التي صارت مزمنة، لكن أفكاري كانت دائماً واضحة براقة بريقاً يبهر الأبصار.

فإذا جئنا إلى الليالي، فقد كانت قوتها تبدو لي وكأنها منبعثة من أضواء الكهرباء، مصباح منير بإدارة زر، وبهجة ليلية مختلفة داخل رأسي. ويزول في لحظة كل تعبي المصبوب صبّاً في جسمي، فأختلط فانية بحيوية جديدة جداً بمن جاؤوا يبحثون عني.

كنا نجلس في المرابع الموسيقية ركبة لركبة مع الأولغات اللواتي كن يكثرن حولنا أحياناً، كما كنا نجلس في أحضان بعض في أماكن مغلقة، وأحياناً في بيوت عائلات، بل وحتى في بيوت أصدقائنا من الشريط نفسه... وهناك بأشكال أخرى، وبألوان أخرى، لكن كلهن أولغات من القماش والنوع نفسه... مع هذه الفروق وهي أن هذه الأولغات لم يكنّ يضحكن، ولا يغنين الأغاني، بل كنّ يشهقن بالبكاء ويذرفن الدموع الغزيرة بحرقة أشد من الرجال الذين كانوا يبدؤون فجأة في ذروة السكر وصخب الموسيقى، بالبكاء على القتلى في الجبهات، وعلى الأيتام والأرامل والجائعين والمرضى خلف جبهات القتال. وبكلمة واحدة البكاء على حال الوطن...

وكان الرجال يهدئون هذه الرؤوس المتناثرة المختلفة الألوان على صدورهم، ويرقدونهن على ركبهم، ويجففون بشفاههم خدودهن وشفاههن الملتهبة المبللة بدموعهن الغزيرة. ثم أيمان على سفح الدماء ((حتى آخر قطرة" من أجل " النصر النهائي "...

كنت أنا أيضاً بين هؤلاء؛ وكما في اللهو كنت شريكاً لهم في ذرف الدموع وفي الأيمان أيضاً. لكني كنت وحيداً وغريباً بينهم. بقدر ما كنت في السهرة التعيسة في بيت المحاسب في كمليك، ليلة انشغلت بخفض وإعلاء فتيل مصباح الكاز الشاحب، وبقدر ما كنت ليلة هربت من ضيوف عزيز باشا وألقيت بنفسي إلى الجدول.

* * * * *

t.me/yasmeenbook

كنت أصادف أحياناً بين هؤلاء امرأة شابة، لا تشبه أي واحدة منهن. حتى ثيابها كانت مختلفة عن ثيابهن. إذ كانت ترتدي فستان سهرة أسود تزينه قليلاً زهرة اصطناعية براقة معلقة على صدره. امرأة خجولة وحزينة. كانت زوجة متعهد صعلوك سفيه، كان يجبرها ويحملها على المجيء إلى هذه الأماكن.

لم أفهم لماذا يفعل هذا، فقد كان أحيانا يصطحب عشيقاته أيضاً، ولا يخفي ذلك. لم أتأخر في أن أدرك أن هناك شبهاً ما بيني وبين هذه المرأة. هي أيضاً كانت مثلي غريبة. ولكن من يدري ما الذي يجبرها هي أيضاً مثلي على تحاشي إفساد اللعبة، كانت تبدو مختلطة ببهجة الحشد... لكنها لم تكن متحدثة ولا أنيسة. وكثيراً ما كانت تنسحب إلى ظلال بروزات أشياء كالستائر والخزانات وتجلس وحيدة في الزوايا.

اشتد هيجان المتعهد وانفلاته في إحدى الليالي وكان يقال إن السبب في ذلك أنه صاد صيداً ثميناً في تلك الأيام. كانت ليلة حارة، فخلع سترته وصدريته وطلب من إحدى السيدات أن تعزف على البيانو موسيقى رقصة البحارة، وراح يرقص بغنج وميوعة ، تحرر طرف من بنطاله من الحزام وسحل، وظهر قسم من سرة بطنه البدين من بين البنطال والقميص. ثم اشترك معه في الرقص بعض الأفراد الذين تحلقوا حوله في حلقة ضيقة مختلطة من الرجال والنساء وهم يصفقون بأيديهم ويضربون الأرض بأرجلهم. وكانت عشيقة المتعهد بينهم. هي أيضاً كانت جميلة، لكنها بدينة ومسنة. وكان الرجل يضرب بطنه ببطنها أثناء رقصهما متقابلين. ثم أراد أن يضم زوجته أيضاً إلى الحلقة، وكانت تجلس بعيداً ملامسة طرف كرسي طويل كأن هناك من يجلس عليه معها، فلوح بيديه وهو يصرخ : " تعالي، تعالي أنت أيضاً يا نزيهة !".

لم تقبل زوجته، فما كان من الرجل وقد رأى ذلك، إلا أن اتجه نحوها، دون أن يترك الرقص، وهو يهز صدره المنتفخ كصدر امرأة، وأراد أن يجبرها على النهوض. كانت ستحدث مشكلة لولا بعض المتدخلين لحسن الحظ. والمفروض أن أكون أول المتدخلين، لأنني كنت

t.me/yasmeenbook

في أقرب مكان إليهم، لكن، طبعاً لم أجرؤ على ذلك. إنما جلست بجانبها، أو بالأحرى على الطرف الآخر من الكرسي، دون أن أنبس بكلمة.

تأثرت في الحقيقة لهذه المرأة، ولأنني كنت سكران فقد اشتد تأثري هذا، فرحت أرقبها خلسة بطرف عيني. لم تختلف حالتها عن ذي قبل، وليقيني بأنها يجب أن تكون مختلفة نظراً للإهانة التي لحقت بها، بدت لي هذه السكينة مصطنعة وجهداً مبذولاً حياءً من الناس، وهذا ما زاد في إشفاقي عليها. التفتت برأسها لحظة، والتقت نظراتنا، لم أُبعد عيني. بدا لي أن علينا أن نبتسم لبعضنا أمام هذه الحالة، وأن نتبادل بضع كلمات. هل ألامس جرحها ؟ لا شك أن هذا لن يكون صواباً. لكن الحديث عن أي شيء آخر في تلك اللحظة لن يكون صائباً أيضاً. فقلت :

- السيد مبتهج جداً يا سيدتي.

ضحكت وأجابتني قائلة :

- أليست بهجة زائدة جداً يا سيدي ؟

لكنها كانت تبكي.

ساورني انفعال غريب عندما لاحظت ذلك، ولكن ماذا يمكنني أن أقول ؟ لحسن الحظ أنه كان قد عاد للرقص مجدداً مقابل عشيقته. وفي تلك اللحظة اختل توازن العشيقة فيما كانت تدور بركبتها، فجلست على قدمها. ضحكنا نحن أيضاً مع الآخرين. لمحت في تلك اللحظة نظرة السرور في عيني السيدة نزيهة الضاحكتين لي اللتين لم تفارقاني حتى هذه اللحظة. لم يكن ما رأيته قبل قليل بكاء إذن. كانت لها عينان خضراوان عجيبتان لم أر مثلهما في غيرها. كانت خضرة الطحالب هذه تسيل كمادة سائلة وتنتشر على بياض العينين فتظهرهما مبللتين نديتين دائماً. دققت النظر ملياً في هاتين العينين طيلة حديث فتح تلقائياً. ربما لم تكونا خضراوين جداً، لكن فستان سهرتها الحريري المسدود حتى عنقها، وانعكاسات ضوء المصباح الذي تغطي أكثر من منتصفه ظلّة محجّرة، كانت تظهرهما كزمردتين ملونتين أكثر مما هي عليه، فوق

t.me/yasmeenbook

قاعدة مخملية سوداء. ثم لاحظت عيناي اللتان تنظران عن كثب، أشياء أخرى في هذا المحيًا.

بدأت صداقة غريبة بيني وبين السيدة نزيهة، إذ كانت تبدو لي بوجهها الصافي الخالي من المساحيق والأصبغة، وبتصرفاتها الرزينة، أكثر النساء المحيطات بنا أماناً. وكانت أول من أبحث عنها أينما ذهبت.

وفيما كنت أود أن أكلمها بضع كلمات أثناء مروري بها، ثم أغادر، كان حديثنا يطول. وننسحب من بين خطوات الأقدام دون أن نشعر، ونقف فترة طويلة في إحدى الزوايا، ثم نتعب فنجلس على إحدى الأرائك جنباً إلى جنب كتلك الليلة. وكانت أحاديثنا الطويلة هذه، حيثما كنا، مثلنا لا تثير ريبة أحد. كما قلت هي لم تكن كثيرة الكلام. وكنت أنا المتكلم غالباً. أما هي فكانت تستمع إلي فقط بعينيها النديتين. اعتادت علي، وصارت تشكو لي زوجها شكاوى خفية مبهمة. كان على وجهها من الألوان بقايا أحمر شفاه خفيف على شفتيها يبدو كأنه مسح لكنه لم يزل تماماً. بدأ هذا يثيرني واعتبرته بمثابة دعوة سرية خاصة بي. لم أتمالك نفسي وصرت أتفوه بكلمات خطيرة، تلقتها بابتسامة وهدوء واستمعت إليها وهي تبدو أنها لا تفهمها. مما جعلني أكثر جرأة وغواية. أخيراً وفي إحدى الليالي التي سكرت فيها بمختلف المشروبات، لم أتمالك نفسي، فتخطيت كافة الحواجز لأنني لست معتاداً على التكلم مع النساء بمثل هذه الأحاديث، وقلت :

- ما أجمل أن نتجاذب الحديث معاً وحيدين في مكان ما.

لم تضحك هذه المرة، ولم تتظاهر بعدم الفهم أيضاً. إذ قالت بعد لحظة توقف :

- تفضل لعندنا إذن يا سيدي، فوضعي معروف، أنا وحيدة دائماً.

لكن قدوم أحدهم إلي في هذه الأثناء فرقنا عن بعض، ولم نلتق ثانية تلك الليلة.

وفي البيت تخيلتها قبل أن أنام، وفكرت مدة طويلة وتسليت بعينيها النديتين الخضراوين خضرة طحالب البحر، وبالحمرة الخفيفة التي تكاد لا تبدو على شفتيها، وقلت " إنها مغامرة محكومة بالبقاء بهذا القدر".

t.me/yasmeenbook

لكنني تلقيت منها اتصالاً هاتفياً بعد يومين، قالت ببساطة وسذاجة كأنها توجه لي دعوة رسمية : " سأكون سعيدة يا سيدي إذا كان لديك الوقت للتفضل بزيارتي اليوم عند الساعة الرابعة. "

تملكتني الدهشة. " فدعوة بهذه الخطورة لا يمكن أن توجه بكل هذا الهدوء. هي امرأة عديمة الإحساس إذن، وأكثر سذاجة مما تبدو عليه."

ذهبت، ولم يكن بوسعي أن أفعل غير ذلك. لو فتحت لي خادمتها الباب؛ ولو استقبلتني برزانة ووقار بفستانها الأسود المعهود، ولو سألتني كيف أفضِّل قهوتي، ولو أخفت بلباقة منفضة غبار منسية خطأ في الغرفة، لربما كانت هذه ضيافة، وإن لم تكن مستحسنة. ولأنني لن أشعر برغبة في الهروب من مكان مزدحم، كنت سأحدثها من هنا وهناك، وسأتكلم عن زوجها، ثم أستأذن بعد سماع دقات الساعة المعلقة التي لا تتقدم.

كان هذا هو ما أتوقعه. أو أنني كنت سأتهيج بإغراء عينيها النديتين الخضراوين خضرة الطحالب، وبالحمرة الخفيفة على شفتيها. ولم أفكر بما يكون بعد ذلك، وليكن ما يكون.

لكنها فتحت لي الباب بثياب صباحية شفافة كأنها ثياب نوم؛ وكانت تغلق صدرها المكشوف بإحدى يديها فقط. وبدا لي أنني لو مددت يدي، فستفلت يدها أيضاً وتقول بحياء كاذب : " لا تفعل أرجوك ! " وستترك نفسها لأحضاني.

رأيت نفسي فجأة مثل زير نساء يدخل إلى بيت الموعد وهو يراقب ما حوله بحذر. كانت مائدة الشاي التي اصطفت فوقها زجاجات المشروبات أيضاً في الغرفة الصغيرة التي دخلناها، وغرفة النوم التي بقي بابها مواربا، تبين أن كل شيء مجهز مسبقاً. وما أن دخلنا الغرفة قدمت لي خليطاً من الليكور، ويدها على قبة ثوبها الصباحي. شربته. ولاحظت أن كل شيء كان يجري وفق خطة معدة مسبقاً.

t.me/yasmeenbook

كانت قد أغلقت باب غرفة النوم الموارب، لذلك لم أستطع رؤية ما بداخلها. لكني كنت كأنني أرى مناشف اليد النظيفة، وزجاجات الكولونيا فوق المغسلة، وأجمل بيجامة حريرية من بيجامات زوجها، مجهزة لي في الدرج العلوي من أدراج الخزانة، التي أظن أنها بمحاذاة الباب، وأرى تحتها رأسي الخفّين الجلديين المجهزين لي أيضاً، جنباً إلى جنب.

انسكبت بضع قطرات من كأس الليكور الذي بيدي على صدرية سترتي. أسرعت فوراً وأحضرت منشفة مبللة الطرف، ومالت ومسحت البقعة بعناية فائقة. ولم تنس في تلك الأثناء قبة ثوبها الصباحي. إذ كانت تسدها فوراً بحركات مرتبكة كلما انفتحت. ثم جلست على الكرسي أمام مائدة الشاي وراحت تنتظر بلباقة ورزانة.

كانت صامتة مثل كل مرة، تنتظر مني أن أتحدث. لكن الغريب أنه رغم أنني اعتدت التكلم كثيراً في حياتي الجديدة، إلا أنني هذه المرة كنت أجد صعوبة في التكلم، ولا أستطيع التعبير عما يجول في خاطري بالكلمات التي سرعان ما كانت تجف وتتبخر. هي أيضاً شعرت في هذه الأثناء بحاجة إلى أن تقول شيئاً، فسألت عن الأوضاع والأحوال، وحاولت أن تظهر حزنها وتأثرها وانفعالها الوطني. هذا ما كان ناقصاً. قاطعتها فوراً وقلت بانفعال شبيه بالغضب : " دعينا لا نتذكر تلك الأمور. يجب أن نطرح الخواطر الحزينة المريرة من أذهاننا من فترة لفترة " قبلت ذلك فوراً. واستعاد وجهها ابتسامتها القديمة الهادئة فوراً، وكان شبه مستعد للبكاء. وراحت تنتظر وهي تفرك أصابعها، وتنظر أحياناً فجأة إلى وجهي، ثم تهرب بعينيها فوراً وهي تضحك. قدمت لي كأس ليكور آخر، شربته دفعة واحدة لكي أنتعش قليلاً.

كانت قد تناهت إلى مسامعي أقوال عن أن زوجها يقدمها لهذا وذاك من أجل مصلحته. وكانت هذه الأمور طبيعية في محيطنا.

t.me/yasmeenbook

ربما أجبرت هذه المرأة، التي يبدو أن فيها طرفاً نظيفاً، على الانجرار في مثل هذا السلوك على يد رجل كهذا. عصيان وشجار ودموع في البداية؛ ثم اعتياد رويداً رويدا، ثم البدء بتحصيل حصة من ذلك في سبيل متعتها الشخصية، واعتياد... أخيراً الاعتياد على اعتبار هذه الأمور طبيعية... وهكذا عندما تلقيت دعوتها هذه بهذا الشكل، تصورت أنها تعتبرها شكلاً آخر من أشكال الدعوات الرسمية للتسلية...

كانت هذه حقيقة المرأة التي ظننت أنني رأيت شيئاً عميقاً وغامضاً وراء سكوتها المتحفظ. حاولت البحث عن التمردات والشجارات القديمة الكامنة خلف هذا الفراغ، والتي أوصلتها شيئاً فشيئاً إلى هذا الوضع. فتحدثت عن زوجها وأنه رجل غير لائق بها. وكان بإمكاني فعل ذلك بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد. والغريب أنه لم يبد عليها أنها مدركة لذلك تماماً، إنما لم تدافع عنه أيضاً.

هذه الأحاديث في اللقاءات وفي بداية الزيارات، كانت أشبه بالحديث عن الماء وأحوال الطقس قبل الدخول في صلب الموضوع الأساسي. وكانت هذه الأحاديث تطول، بينما كانت هي تنتظر، بأصابعها التي تفرك بعضها، وبعينيها اللتين تختلسان النظر إلي وتهربان...

نهضت هي أيضاً عندما وقفت على قدمي. وعندما لم أفعل شيئاً، مالت ثانية على سترتي، وبعد أن عاينت مكان البقعة قالت: "انظر، لم يبق شيء أبداً."

هذا الموعد بكل ترتيباته المهيأة مسبقاً، هذا الموعد المشبع بأجواء وروائح الملاهي، لم يكن هو الموعد الذي كنت أنتظره وأفكر به اليوم خائفاً مرتعشاً. ثم إنه خلط بانفعالاتي أفكاراً كثيرة. تجمد وتخجل وتبعث على التفكير، أشياء متداخلة متشابكة... لكن مع أن المرأة لم تكن تلك المرأة التي كنت أجلس بجانبها خجلاً مستضعفاً منزوياً في زاوية ما، إلا أنها كانت امرأة، كما كانت هي تلك المرأة نفسها أيضاً إلى حد ما. كنا وحيدين، وكانت جاثية عند ركبتيّ وهي تعاين بقعة سترتي.

t.me/yasmeenbook

كانت كأنها امرأة نهضت للتو دافئة من فراشها، بزينتها غير المتناسقة، وبثوبها الصباحي المفتوح الصدر بين فينة وأخرى وبجوربيها الشفافين اللذين يبديان شعرات فخذيها شبه العاريتين شعرةً شعرة، وبشبكة شعرها المحكمة الشد... كانت خيوط شعرها الرفيعة المنفلتة من الشبكة تتطاير وتلامس وجهي وشفتي... وهذه الرائحة المنبعثة من هذا الرأس، ومن هذا الصدر الذي لم تعد تسده تماماً... ثم أحمر شفتيها الذي لم يمسح جيداً، وعيناها الخضراوان خضرة الطحالب التي تبدو كمادة سائلة تطفح وتمتد إلى بياضهما، ومحياها المحمر من اندفاع الدم إليه عندما رفعت وجهها صوب وجهي من حيث هي جاثية...

كأنها ترنحت أثناء نهوضها، فأمسكت بذراعيها، ولم أفلتهما فوراً. تحركت كأنها تريد أن تتهرب، لكنها لم تهرب، بالعكس اقتربت أكثر؛ التصقت. وكما لو أنني أضغط عليها ضغطاً لا تستطيع التخلص منه راحت تقول: " لا، لا يا سيد شرف. دعني أقبّل قدميك... أوه لا، أوه لا.. لقد وعدتني بأن تكون مهذباً ! "

هل وعدتها بأن أكون مهذباً ؟ وما الذي جرى بيننا لأعدها بذلك ؟ هذا أيضاً جهزته المرأة التعيسة مع الخفّين والبيجاما التي كأنني رأيتها من باب غرفة النوم الموارب، أو إنها لوازم مهيأة لكل زيارة...

مؤكد أن كل شيء كان قد انتهى؛ ولا مفر. مررت يدي الممسكتين بذراعيها إلى خصرها، وضغطت المرأة بقوة، بقوة بحيث لا يمكنها معها الانفلات والتخلص، لأن جسمي كان يتوقع مقاومة ما من جسمها. لكن المراسيم المهيأة كانت إلى هنا فقط. ولم تعد هناك مراسيم وتشريفات من هنا فصاعداً. إذ ارتخى الجسم الذي كنت أنتظر تصلبه، والتصق بجسمي. قربت شفتيها من شفتي قائلة : " روحي، حياتي ! ". في تلك اللحظة... دخلت ابنة عزيز باشا فجأة فيما بيننا، بوجهها الذي لم أتجرأ على استحضاره أمام عيني منذ عدة أشهر. تلك، بجسمها الذي ما زال بعد سنوات ينشد ويتصلب كما في ليلتنا الأولى، كلما ضممتها بين

t.me/yasmeenbook

ذراعي، وبعينيها الشهلاوين الصافيتين المجفلتين المستوحشتين، وبأسنانها البيضاء كالحليب تعض على شفتها السفلى عندما تبدأ شفتها العليا الرقيقة بالارتعاش من المتعة المقتربة...

في تلك اللحظة فسد السحر الآخر المختلف. " إننا نتصرف تصرفاً سيئاً يا سيدة نزيهة، أقول سيء، حرام بحق زوجك... الحق معك... يجب أن ألتزم بالوعد الذي قطعته لك... يجب أن نبقى أصدقاء.".

وجملة من الكلمات المتداخلة المختلطة، الشبيهة بهذه.

ابتلعتني الأرض من شدة خجلي ورميت بنفسي خارجاً... وفي الشارع رحت أوبخ نفسي قائلاً " آه، يا لك من غر لن يصبح رجلاً ! "...

وفي الليل، لم أعد أذهب إلى مجتمع العائلات الراقية، بل صرت أذهب إلى ملاهٍ حقيرة، مع بضعة أصدقاء صعاليك بكل معنى الكلمة، لا يتحرجون من فعل شيء مطلقاً؛ شربت كما لم أشرب أبداً، وراقصت أدنى النساء منزلة، وتصرفت بصفاقة ووقاحة أشد جداً من صفاقة المتعهد، عضضت النساء مثل كلب مسعور، وجعلتهن يصرخن ويولولن، وامتلأ فمي بدهون مساحيقهن وأصباغهن الرديئة، وبدهون وعرق أجسادهن. أخرجت نقوداً من جيوبي الداخلية ووزعتها. حتى أن أصدقائي سئموا مني، فقذفوا بي إلى عربة وأحضروني إلى بيتي... هدأت قليلاً لأنني أثبت لنفسي أنني لست غراً جداً، وغفوت.

أنا إنسان في النهاية، إنسان مثل كل الناس. وسوف أقع عاجلاً أو آجلاً. كما وقعت في مساعدات المقطورات التي رفضتها في بداية مهماتي ثم قبلت بها بعد عدة أفكار معقولة. وكما وقعت في الأشياء الشخصية النادرة التي جلبتها من الخارج مستنداً إلى حقوقي التي تعترف بها قوانين الجمارك، بعد أن أثبت لنفسي كم أنا رجل شريف باشمئزازي من مهربي الذهب. وكما بعت كماناً أثرياً بثمن مرتفع دون أن أفكر وأهتم بمن سيعزف عليه، بعد أن أقنعت نفسي بعدة محاكمات عقلية معقولة بأنه

t.me/yasmeenbook

ملكي. كذلك سوف أعتاد على نساء كثيرات أمثال أولغا ونزيهة. ولا شك أبداً أن ابنة عزيز باشا لن تلعب علي مرة ثانية اللعبة التي لعبتها في البداية. حتى أنني بدأت أتردد على مجتمع الطبقة الراقية، ولم أصادف نزيهة في المرة أو المرتين اللتين ذهبت فيهما، لكن لا شك أنني سأقابلها إن لم يكن غداً فبعد غد، وعندها سوف أثبت لها أنني لست غراً، وأنني رجل كامل الرجولة.

*****

لكن فيما كانت هذه لا تزال مجرد تصورات، أعلموني وأنا في سريري بحضور شخصين غريبين لمقابلتي. وبعد قليل كنت معهما في سيارة لمقابلة مدير الشرطة. ثم إلى نظارة التوقيف....

والغريب أن هذا الباب أيضاً فتح تلقائياً كأبواب قصر الجن. لماذا وكيف حدث؟ أيضاً لا أعرف.

أخذوني أحياناً إلى مجموعة غرف صغيرة، وسألوني أسئلة. ارتبت وخفت من بعضها. لكن أغلب الأسئلة التي سألوا عنها باهتمام، وكتبوا إجاباتي عليها على الآلة الكاتبة ووقعوني عليها، كانت أسئلة تافهة، ولا شيء. ومع أنني لم أفهم شيئاً من أي منها، إلا أنني أظن أن إجاباتي كانت معقولة جداً. مع ذلك لا أدري؛ حولي أيضاً أبواب، أبواب، أبواب... لكنها أبواب من المفروض أن تثير الرهبة والفزع لأنني لا أعرف ولا أدرك كالسابق ما الذي خلفها... إنما كانت تصل إلى مسامعي أحياناً أصوات تجعلني أظن أن النظام لم يعد النظام الضخم القديم نفسه، وأنني وقعت بين أسنان دولاب آخر... لقد تغيرت الحكومة، وصار القصر الأحمر يبدو بأبوابه شبه المغلقة، وبنوافذه المسدلة الستائر، كأنه بيت للإيجار. وتصطك أسناني وأنا أعاني أحياناً نوبات من الخوف في سكوتي الحائر، ثم أعود فأهدأ مرة أخرى.

t.me/yasmeenbook

لا أعرف ما حل بمراد بيك ولا أين هو. لكن وجهه أمام ناظري دائماً، وصوته في مسامعي دائماً. طال الوقت، ولكن الوضع لن يستمر هكذا... ولا بد أن يفتح أحد هذه الأبواب يوماً ما... ولكن هل سأجد في محيطه زقاقاً، أم منظر مرج شاسع، أم خشبة إعدام ؟... هذه الاحتمالات كلها ممكنة. فلا الأسئلة الكبيرة ولا الصغيرة بإمكانها أن تثبت شيئاً.

كان قلبي يحترق بمرارة ما عرفت كنهها حتى اليوم، كلما لاح طيف سنيحة أمام ناظري، وطردته فوراً. كنت عندما أتعرض أحياناً لمداهمتها في بعض ليالي المرض ونوبات الفزع، أبكي وأتخبط وأصرخ بها ماذا تفعلين في هذه الأماكن التعيسة في هذه الساعة، اذهبي، دعيني، ماذا تكونين لهذا الرجل الوضيع ؟ " ثم تغيب عني فترة ولا تمر علي.

كانت رسائلها لي، بعد عودتي الأخيرة من كمليك، قصيرة، ولا يمكن استنتاج أي معنى منها. أخيراً تسلمت رسالتها التي تقول فيها : " يجب أن ننفصل... هذا أفضل شيء ! " دون أن تذكر أي سبب. ربما كان ذلك لأنها سمعت بفضائح حياتي الخارجية التي لا يمكن أن تخفى. أما أنا، وبعد أن وصلت إلى هذا الوضع... فعلي ألا أفكر بما بعده.

لكن وفي يوم لم أكن أتوقعه أبداً، رأيتها وقد جاءت مع عزيز باشا لزيارتي في نظارة التوقيف، تماماً كما عندما كنت نائماً في منزل الطبيب، مضمد اليدين. وبديلاً عن الطبيب كان برفقتهما الآن قريبهما ذلك الضابط الفارس وقد صار يعلق على صدره شارة المرافق العسكري. ومثل تلك المرة، هنا أيضاً جرى الحديث عن حادث وقع.

تكلموا كلاماً مبهماً مسلياً مثل عدم الاستسلام لليأس، وعدم قطع الأمل، وتركوا لي بعض الهدايا الصغيرة. لم أنظر ولو مرة واحدة في وجه سنيحة. ربما هي أيضاً لم تنظر.

* * * * *

t.me/yasmeenbook

وبعد شهرين حكم علي بغرامة مالية كبيرة، وبعد مدة سجن بسيطة، إضافة إلى مدة توقيفي أفرج عني. فاصطحبني الأب والبنت من السجن مباشرة إلى الباخرة... كائناً ما كان اسمها الذي تحمله الآن، فهي بالنسبة لي نيلوفر باخرة بورصه، اصطحباني إليها. لم أعترض ولم أسأل لماذا ؟ ". إذ وصلت مذلتي حتى نخاعي. وإن بقي شيء ضئيل من إنسانيتي، فهو إدراكي أنه لم يعد لي حق في أي سؤال أو في أي حقوق إنسانية. لا بد أنهم أشفقوا علي من أن أقوم بعمل طائش ما، كذلك الذي قمت به عند رأس الجسر الصغير، عندما أصبح طليقاً. فسوابقي ليست واحدة فقط. وانتظار أن تصالحني سنيحة التي كتبت تقول لي : " يجب أن ننفصل ! " يعني أنني لا أعرفها. ولا بد أنهم سيجدون شيئاً ما... بعد أن يستضيفوني عندهم فترة من الزمن، وبعد أن يطمئنوا إلى أنني صرت في حالة لن أقوم فيها بعمل جنوني ما... كنت أقول لنفسي ونحن في طريقنا إلى المزرعة، لا بد أنهم جهزوا لي غرفة مستقلة، غرفة العمل التي كانوا خصصوها لي في الطابق السفلي " كانت عقوبة الآخرين خفيفة جداً، سوف أكمل عقوبتي هنا إذن ! ". لكن ما كنت أفكر فيه لم يحدث. فقد كانت غرفتي هي غرفتي القديمة نفسها. قلت عندما رأيت هذا :

- سنيحة كنت قد كتبت لي تقولين بأنه يجب أن ننفصل.

- هل تريد هذا بالتأكيد ؟

- أظن أن هذا ما يجب أن يكون، بعد أن سقطت هذا السقوط كله... انظري حتى عندما اصطحبتني إلى غرفتك لم أجرؤ على القول "كيف تطأ قدما رجل مثلي هذا المكان ؟ " أنا سقطت إلى هذه الدرجة من المهانة.

- لنكن معقولين يا شرف. كان الطبيب المسكين حتى مماته، يكرر لي قائلاً: " ذاك طفل مثل دمية يظن نفسه كبيراً. يجب العطف عليه... ومنحه الحب... أما أنت فكبيرة جداً منذ صغر سنك. كبيرة إلى درجة أن تكوني أماً له." هذه الكلمات لم تبرح ذاكرتي قط. لقد فكرت

t.me/yasmeenbook

كثيراً بعد الذي مرّ بك، فكرت طويلاً طويلاً، وأظن أنك ما زلت طفلاً لدرجة تظن معها أنك فعلت أفعالاً كبيرة... واقترفت ذنوباً كبيرة...

لم أتجرأ على النظر في وجهها. فقد بدأ يأخذ فعلاً ملامح وجه أم شابة فيه بعض التجاعيد الخفيفة، كذلك هناك بعض التجاعيد عند أطراف عينيها. قالت مبتسمة عندما رأتني أنظر إليها :

- شرف، هل ثمة إحداهن أيضاً يا ترى بين هذا الذي نقول عنه طفولة ؟ إذا وجدت تلك....

كنت أمعن النظر في وجهها دون أن أستنتج أي معنى من كلامها. كان هناك قلق في وجهها الجدي الرزين الذي لم يتغير حتى تلك اللحظة. لكن هذا القلق جعلها هي أيضا طفلة. فقالت بعينين دامعتين :

- هناك جملة أخرى للطبيب لم أنسها، إذ قال : يجب النظر في عيني الطفل...

ثم ضربت الأرض بقدميها كدمية مدللة مشاكسة، وداهمتني بالقول :

- انظر في عيني يا شرف... انظر دون أن تبعدهما... أجبني... هل صحيح أنك خنتني مع نساء أخريات ؟ لأنه إذا كان كذلك...

كانت تبكي. حينها نظرت في عينيها مبتسماً بهدوء لا أعرف من أين حصلت عليه. ازداد بكاؤها، لكنها كانت تضحك أيضاً في الوقت نفسه. ثم مالت برأسها إلى طرف وقالت :

- إني مجبرة على التصديق يا شرف. عدنا كما كنا في الماضي.

كما كنا في الماضي ؟... هل هذا ممكن ؟ أهذه هي الرحمة أكبر قوة إنسانية عجباً ؟

أمسكت بيديها وقبلتهما ممتناً، ثم ضممتها إلى صدري بجرأة لا أعرف مصدرها، وقلبي يخفق بشدة. لو أن الرحمة أبدت معجزتها الأخيرة ورمتها بين ذراعي. لتجولت في الحديقة قليلاً، ثم غبت بين طيات الظلام كما فعلت في تلك الليلة التي لا تنسى. لكنها تراجعت فجأة إلى الوراء، وتصلبت يداها ثم جسمها كله.

t.me/yasmeenbook

قلت متوسلاً :

- قولي في هذه الليلة على الأقل إن كنت تحبينني أم لا.

وبوجهها الدائم الحياء بعد كل فراق صغير كما في ليلتنا الأولى قالت :

- لا على الإطلاق، ولا سيما هذه الليلة.

لم أتمالك نفسي وأجهشت بالبكاء كطفل.

تمت الترجمة في حلب

مساء الأربعاء 2010/5/19

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

فاروق مصطفى في سطور:

- من مواليد حلب 1945.
- من قرية سلوى في أقصى شمال الوطن التابعة لناحية الغندورة بمنطقة جرابلس بمحافظة حلب.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- عضو نادي شباب العروبة للآداب والفنون بحلب.
- عمل معلماً وكيلاً ، ومدرساً متعاقداً للغة العربية ، ومعلماً في الجزائر العاصمة، منذ عام /1965 -1971/
- عين موظفاً إدارياً في جامعة حلب عام /1971 حتى عام 1998/ حيث أحيل إلى التقاعد بناء على طلبه.
- يتقن اللغة التركية، ويجيد اللغة الإنكليزية، ويلم بالفرنسية والألمانية.
- شارك في كثير من الأمسيات الأدبية التي أقامها اتحاد الكتاب العرب في حلب وإدلب واللاذقية وحمص وحماة والرقة، وفي أمسيات المراكز الثقافية، وأمسيات النادي العربي للتمثيل والآداب والفنون بحلب، وأمسيات النادي العربي الفلسطيني بحلب.
- نشرت بعض أعماله القصصية والشعرية المترجمة عن التركية في الصحف والمجلات المحلية والعربية. وفي دوريات اتحاد الكتاب العرب.

طبعت وصدرت له الأعمال التالية:

1 - "القميص الناري" رواية للكاتبة التركية خالدة أديب آدي فار. دار العلم بدمشق عام /1991/.

2 - " كيف ينقلب كرسي؟"مجموعة قصص قصيرة للكاتب التركي الساخر عزيزنسن . دار الينابيع بدمشق عام /1992/.

3 - " أي حزب سيفوز؟" مجموعة قصص قصيرة للكاتب التركي الساخر عزيزنسن. دار المرساة باللاذقية عام /1997/.

t.me/yasmeenbook

4 - "صراع العميان" مجموعة قصص قصيرة للكاتب التركي الساخر عزيز نسن. دار عبد المنعم ناشرون بحلب عام/ 1999/.

5 - " ثلاث مسرحيات أراجوزية" مسرحية للكاتب التركي الساخر عزيز نسن. وزارة الثقافة بدمشق عام /2000/.

6 - " الهارب" رواية للكاتب التركي أورهان كمال 0 اتحاد الكتاب العرب دمشق عام/2004/.

7 - " إسكان العشائر في عهد الإمبراطورية العثمانية " للبروفسور الدكتور جنكيز أورهونلو0 دار الطليعة الجديدة بدمشق عام / 2005 /.

8 - " غريب" رواية للكاتب التركي يعقوب قدري قره عثمان أوغلو. وزارة الثقافة بدمشق عام / 2007 /.

9 - " الأعمال المسرحية الكاملة "للكاتب التركي الساخر عزيز نسن.المجلد الأول اتحاد الكتاب العرب عام / 2007/ .

10 - "الأعمال المسرحية الكاملة " للكاتب التركي الساخر عزيز نسن. المجلد الثاني
اتحاد الكتاب العرب عام / 2008/ .

11 -" حبيبتي استانبول " مجموعة قصص قصيرة للكاتب التركي نديم غورسل وزارة الثقافة بدمشق عام / 2009 /.

12 - "الأوغوزنامة - حكايات الجد قورقوت" حكايات من التراث التركماني . جمع مهريبان برين . وزارة الثقافة بدمشق عام / 2010/

13 - " حادثة عزيز بيك" رواية للكاتبة التركية آيفر تونج .
دار قدمس بدمشق عام / 2010 / .

14 - " سلطان الفيلة " رواية للكاتب التركي يشار كمال .
دار نون4 بحلب عام / 2011/.

15 - " فوضى " رواية للكاتبة التركية سيبل تركر بعنوان " ماتت الشاعرة " دار الحوار باللاذقية عام / 2011 /.

16 - " سبعة أيام في نهر الجنون" للكاتب التركي مراد غلصوي بعنوان "اسبوع رحمة في استانبول " دار الحوار باللاذقية عام/ 2012/.

t.me/yasmeenbook

أعمال قيد الطبع:

- "رجل اليوم " مسرحية للكاتب التركي خلدون طانر .
- "الأعمال المسرحية الكاملة " للكاتب التركي الساخر عزيز نسن المجلد الثالث.
- " الاوغوز - التركمان. تاريخهم " للبروفسور الدكتور فاروق سومر. المجلد الأول

أعمال قيد الإنجاز:

- " الحيوات الكسيرة " رواية للكاتب التركي خالد ضيا أوشاقلي غيل
" الاوغوز ــ التركمان .تشكيلاتهم القبلية – ملاحمهم " للبروفسور الدكتور فاروق سومر. المجلد الثاني والثالث.

t.me/yasmeenbook

اليد الخفية / رشاد نوري غوتكين ؛ ترجمة فاروق مصطفى.- دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠١٢.- ١٦٢ ؛ ٢٤ سم.- (سلسلة الترجمة؛ ٣).

١- ٨٩٤,٣٥ غ و ت ي ٢- العنوان

٣- غوتكين ٤- مصطفى ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

t.me/yasmeenbook